زهير البيومي



بيت حديد مسلح

بَيت حَديد مُسلّح

زهير البيّومي

بَيت حَديد مُسلّح

اهداء

الى أمي الغالية
أنت دائما شمعة تحترق. . . قلب عطوف. . .
وصدر حان ونور هاد وضاء. . .
ونبع ماء ساعة الهجير. . .
وروح ملهمة عندما تختلط علينا الأمور
ويتعذر التفكير ويصعب اتخاذ القرار. . .
قدومي لنا نهر حب دافق يحمل الخصب والحبور

زهير البيومي

-١-

مع الغروب كان الفلاحون رجالا ونساء وأطفالا عائدين من رحلة العمل اليومية على الطرق الزراعية من طريق ترعة المسلمانية وترعة البوهيه ومن كل حدب وصوب . كانوا متعبين مطأطئين رؤوسهم المثقلة بالهموم، ومجرجرين أرجلهم التى ناءت بحمل أجسادهم على هزالها . . حتى البهائم خلفهم كانت منهكة بعد أن دارت في الساقية تلك الدورة المغلقة التي تدور فيها يوميا . . حتى الناس فى أعمالهم المختلفة كانوا كالبهائم يدورون فى حياتهم بلا وعي ، دورة تكاد تكون أزلية متتابعة كتعاقب الليل والنهار، لا يتساءلون عن سبب لهذا ، ولا عن جدوى ما هم فيه ، ولا يعترضون ، فقط هم يعرفون بالفطرة تعاقب الليل والنهار، فى النهار يهربون من لفحة الحر، بالاكتفاء بارتداء ازار أثناء العمل ، وفي الليل يتخففون حتى من هذا الازار. يهربون من حر وتعب النهار الى نشوة الحب فى فراش يلقون عليه برؤوسهم المثقلة بالهموم . . تلك

الهموم التي لا يعرفون مصدرها ولا يدرون وسيلة للخلاص منها . . بل وحتى لا يفكرون فى ذلك ، انهم يعرفون أن هناك إلهاً واحدًا احدًا . . وهو وحده القادر على تغيير ما هم فيه وتفريج كربهم ، يعوذون بالله من الهم والحزن والعجز والكسل والفقر والمرض والبخل والجبن وغلبة الدين وقهر الرجال .

والقهر يصل الى منتهاه مع نهاية رحلة العمل اليومية والأزلية فى نفس الوقت . مع الغروب يعودون الى بيوتهم لا يفكرون الا في ابتلاع لقمة تقيم أودهم ، وقطعة من الحلوى المنزلية الصنع لعلها تشد في ساعات الحب أزرهم ، ونوم مريح يستقبلون بعده يوما آخر من العمل . ويا لها من رحلة لن تنتهي الا بانتهاء الدورة الفلكية أو بانقضاء الأجل المحتوم ، فى يوم غير معلوم ، يعملون له ألف حساب في صلواتهم ومعاملاتهم وأدعيتهم التي تتطلع الى الله أملا فى الاستجابة .

ومع حلول الغروب كان بيت السيد «طاهر المصري» حافلا بالحركة كعادته بل وأكثر . فقد كان السيد طاهر قد عقد العزم على أمر تكتمه منذ مدة وأعد العدة له ، ،مع الغروب بدأ الأبناء فى نقل أثاث البيت بعد تفكيكه قطعا صغيرة الى الشقة الخالية فى منزل أحمد البقال .

وكان منزلا قريبا . . حتى الأطفال من أبناء طاهر المصري كانوا ينقلون الحلل والصواني وهم يتسلون بترديد الأغاني دون أن يعرفوا لماذا ينقلون أثاث بيتهم الى بيت البقال .

فقط خمنوا أنهم سيقيمون هناك لماذا؟ . . الله أعلم .

وكان السيد طاهر المصري ممن يؤمنون بالاستعانة بالكتمان لقضاء حوائجهم ، ولهذا فقد اختلف الجيران في تفسير نقله لأثاث بيته الى بيت آخر. هل اختلفت زوجته مع أمه؟ . . كيف وهما كالسمن على العسل ، لكن السيد طاهر كان له من الاحترام ما لم يجعل هذا السؤال يصل الى سمعه مباشرة ، انما وصله عندما سمع تساؤلات أبنائه الصغار لأمهم ، هل أنت في خصام مع نينة يا ماما ولهذا نترك البيت؟ . . وهي ترد صادقة «لا يا أولادي . . لا شيء من هذا أبدا . . غدا تعرفون» . ويطمئن الأطفال الى اجابة أمهم ، فقد عهدوها دائما صادقة ومصدر طمأنينة وحب لا ينضب .

وفي حلكة الليل يتقوض بناء منزل طاهر المصري القديم بعد أن قام مقاول الهدم وعماله باحاطته بأسلاك قوية بربطه بجرارات من كل جانب حتى تقوض البناء ، بعد أن قام العمال بخلع الأبواب والشبابيك الخشبية العتيقة المصنوعة من أجود أنواع الخشب .

وكان صوت تقوض البناء يسمع وكأنه حلم آت من

بعيد. حلم لم يستيقظ الناس منه الا على صوت الأستاذ «محمد غبور» المدرس بمدرسة الصنايع الثانوية. . . وصوت محمدغبور لا يسمعه أحد الا في الأحداث الجسام، فهو رجل مغرم بسماع نشرات الراديو الاخبارية فى شتى المحطات الاذاعية وقراءة أخبار الصحف بل وتقصيها من الآتين من القاهرة يوميا.

سمع الناس صوت محمد غبور يصيح:

- اصحوا يا أهل البلد. . ثورة قامت في البلد. . إصح يا بلد. . الجيش قام بثورة.

وخرج الناس على صوت محمد غبور وذهلوا لمرآى بيت طاهر المصري أنقاضا وحسبوا أنهم سيشهدون بناء جديدا.

شغل الناس الذين اسيتقظوا منظر بيت طاهر المصري، وهو مجرد أنقاض أثر بعد عين، بنفس القدر الذي شغلهم به قيام الثورة وراحوا يتساءلون:

- ترى من وراء الثورة؟

- الجيش طبعا.

- ترى كم طابقًا سيبني طاهر أفندي؟

- لعلها فيلا.

- وربما سراية فهو رجل مقتدر.

- لكنه - والحق يقال - طوال عمره ما في جيبه ليس له.

- وربك يخلف عليه بالحلال .
- ترى أين سيذهب الملك؟
- يروح فى ستين داهية .
- أتظن الانجليز سيرضخون؟
- وسيروحون هم أيضا في ستين داهية .
- قل كلاما معقولا يا فتحي .
- ولماذا لا تعقل أنت كلامي . . لا شيء على الله ببعيد، فربنا كبير.
- ولكن طاهر أفندي وزوجته كتومان جدا لا أحد يعرف عنهما شيئا . . بحورهما عميقة .
- وهذا ما يجب أن يكون فالرجل وزوجته ستر وغطاء لبعضهما .
- حتى غروب أمس لم نلاحظ عليهما شيئا .
- نعم، وأنظر ما حدث من المغرب حتى الفجر.
- فك الأبواب والشبابيك وأنزل عروق السقف الخشبية وهدم البيت .
- وتأمل أيضا هذه الثوره التي قامت .
- ترى ما الذي تأتي به الأيام؟

-٢-

كان حلم طاهر المصري يمثل حلم معظم أهل «السنبلاوين» في ذلك الوقت أن يبني بيت حديد مسلح.

لم يكن فى البلد سوى عدة بيوت قليلة بالحديد المسلح، وكانت اما مملوكة لأجنبي مثل «الدرعي» صاحب محل القطن أو أحد الأرمن مثل «أندريه» أو لثري مثل «صالح مصطفى» تاجر الأقمشة ولكن أحدا من أهل البلد العاديين لم يكن ليحلم ببناء بيت حديد مسلح.. فقط طاهر المصري استبدت به الأمنية.. ولا غرابة في ذلك فهو المدرس الذي يردد دائما على سمع أبنائه وتلاميذه أن الشيء الوحيد المتيسر والمباح للجميع هو حق الانسان في أن يحلم.. ولكن المهم هو أن يضع أحلامه موضع التنفيذ.. ذلك هو الفرق بين انسان وآخر.. وهذا الفرق يصنعه العزم والعمل فهو المؤمن - دائما - بأن بوسع الانسان - دائما - أن يحقق ما يؤمن به ويردد «الايمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل».

واستيقظ طاهر المصري وأسرته في الصباح ليتلقوا خبر الثورة من المذياع وهم جالسون يتناولون الافطار على السفرة فى شقتهم المؤقتة بمنزل أحمد الوطني البقال. وتفاءل طاهر المصري خيرا بالخبر. فهو كان دائما يؤمن أن تغييرا جذريا لابد أن يحدث، وأن الملكية قد استنفذت أغراضها - صحيح أنه قد سبق وكتب قصيدة في مدح الملك فاروق عند توليه العرش ولكن هذا لا يمنعه أن يكتب قصيدة ترحيب بالثورة ورجالها - من هم؟ . . هو لا يعرف حتى الآن. . وعليه بالصمت حتى تتضح الأمور وينجلي ما هو غامض. هو حين امتدح الملك فاروق عند توليه العرش انما امتدح صورته كما قدمتها الصحف وأجهزة الاعلام. ولهذا فعليه بالتريث هذه المرة وعدم الاندفاع الى كتابة قصيدة ربما يندم عليها بعد حين. . ولكن كيف للقلب أن يتريث فى دقاته وهي دليل وجوده ونبض حياته، التي عقد العزم على ألا تتوقف حتى يكف القلب عن الخفقان. فالحياة هي العمل وبالعمل يتحقق كل أمل ويزول كل كرب وكل خطب جلل.

وها هو جديد يشرق، وبناء قديم يتقوض. فمتى ينهض البناء الجديد بالصورة التي في مخيلته والتي همس بها

للمهندس ، فرسم البناء الذي سيظل سرا الى أن يظهر للعيان شامخا فريدا في نوعه . عند ذلك تولد القصيدة ويجدر المديح ولكن مديح لمن؟ للفكرة أم لصاحب الفكرة؟، البناء أم المهندس أم العمال الذين وضعوا البناء موضع التنفيذ؟ . يا لها من حيرة تجعله يرجىء التفكير في القصيدة حتى ينهض البناء أولا .

-٣-

بارك الناس خطوة طاهر المصري بنفس الحرارة التي باركت بها الصحف الوطنية الثورة. ولا غرابة في ذلك فكلاهما خطوة تتضمن هدما لقديم وعزما على تشييد صرح جديد. هذا صرح بيت ظل طاهر المصري يحلم بصورته ويتمنى أن يعيش فيه يوما ما وأن يتمتع بالسكن في بيت حديد مسلح، بيت مزود بالماء والكهرباء. وهذا صرح وطن اختطفته الاهواء وعسف الأعداء، فبين أهواء الملك وأطماع الانجليز ضاعت البلد وافتقد الناس العدل والطمأنينة ونور العلم والصحة. وبدلا من الحب ساد الحقد والضغينة وعصفت الأنواء بالسفينة، وهذه الثورة قد قامت فهل تصل السفينة الى بر الأمان وهل تتخلص النفوس من الهوى وتتخلص البلاد من المحتل وأطماعه التي لم تكن لتقف عند حد؟. كل ذلك رهن بما استقر في قلوب الشباب.. أولئك الفتية الضباط الذين تطلعت اليهم العيون عاكسة في نظراتها أماني كثيرة ظلت

حبيسة في نفوسهم سنين عديدة، ورهن بصدق نيتهم على العمل لصالح الناس.. والناس في بلدنا يعيشون باحساسهم.. فهل يصدق الاحساس؟ المبادئ الستة المعلنة تنبئ بالخير، والناس لا يملكون الا أن يتفاءلون خيرا ولو من باب «بشر ولا تنفر». فمن يكره قيام حياة ديمقراطية سليمة في بلاده أو يكره تحقيق العدالة الاجتماعية، ومن لا يصبو الى القضاء على الاقطاع وكذا القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال المستغل؟ ترى من ذا الذي لا يتوق الى اقامة جيش وطني قوي درعا واقيا للبلاد؟ ومن ذا الذي لم يحلم بالقضاء على الاستعمار وأعوانه؟.. ليس فينا مثل هذا الرجل. ولكن لننتظر ما ستجيء به الأيام، وهل تصمد المبادئ أمام الأهواء وأطماع النفوس «فالنفس دائما أمارة بالسوء» واذا سلمت من أهواء وأطماع أصحاب الأهواء ترى هل تسلم من أطماع أعدائها في الداخل والخارج، فلا ريب أن الأطماع تحيط بالثورة في الداخل والخارج، كل يريد نصيبا.

وقال طاهر المصري في نفسه متخيلا الضباط الشباب قادة ثورة البلاد والوحوش تتربص بهم الدوائر كل يريد أن يغنم مغنما.. وهم في حيرة من أمرهم ولهم من حداثة سنهم وقلة تجربتهم العذر في حيرتهم، لكن طاهر المصري أراح نفسه – مؤقتا – بأن قال لنفسه: «انهم سيواجهون الحياة. وأن

التجربة والخطأ قد تكون لهم خير مدرسة ولكنه عاد يتساءل: وهل حياة الناس حقل تجارب أو مختبرمدرسي يتحقق التقدم فيه على يد التلاميذ؟، حقا انهم عدة المستقبل. ولكن لا يمكن أن نسمح بأن يكون المستقبل على حساب الحاضر. فكل جيل من حقه أن ينال حظا من الحياة الرغدة السعيدة. وأخيرا، استسلم طاهر المصري لفكرة أن الأمر لله، وينظر ما ستأتي به الأيام، ولا يحاول أن يسبقها، ويتفرغ للتفكير في بناء البيت الذي هدمه، حين قرر الهدم كان في خياله صورة للبيت الجديد ليست واضحة تماما، وانما خيال غير محترف. حتى الرسم الذي همس به الى المهندس المعماري لا يعدو أن يكون مجرد تصور، يحتاج الى أن يضعه المهندس في الاطار السليم من الناحية الفنية الهندسية. وتوجه الى المهندس - مرة أخرى - في المنصورة ليرى الرسم في صورته النهائية، وعاد سعيدا. فقد رأى حلمه يتحقق على الورق، ويبقى أن يتحقق على أرض الواقع وراح يعرض الرسم على السيدة زوجته ويوضح لها الصورة التي سيكون عليها بيتها. . حجرة نومهما الرحبة. وحجرة الأولاد. وحجرة البنات. والصالون. والمكتب وحجرة أمه - التي تقيم معه - والمطبخ عالمها الخاص الجميل حيث تبدع فى صنع الطعام والحلوى. أكثر ما أسعدها أن المطبخ كان فسيحا وكذلك الصالة حيث

الجلوس معظم الأوقات. ومسقطا النور يمكن استغلالهما كحديقتين صغيرتين يركن الأطفال الى اللعب فيهما ساعة يطيب لهم اللعب لأن الست سعاد لا تحب أن يختلط أولادها بأولاد الشوارع دائما. وكثيرا ما عارضها طاهر المصري في ذلك ودون جدوى. فالست سعاد رغم أنها ابنة ناظر مدرسة يتعامل مع شتى فئات المجتمع، الا أنها أرستقراطية النزعة هادئة الطبع تنفر من الزحام وكثرة الاختلاط وتقضي معظم وقتها بين المطبخ والعبادة. فهي لا تفعل في البيت شيئا سوى المطبخ، أما الأعمال الأخرى فان أم عبده نظلة تقوم بها عنها وقد وضعت النقاط على الحروف من أول يوم طلع عليها في بيت زوجها.

-٤-

حين جاءت الى هذا البيت كان يعيش معهم «ناصح» أخو زوجها وزوجته «فهيمة الفنجري» وحماتها الست أم طاهر، وفي يوم الصباحية وهي خارجة من غرفتها في البيت القديم رأت حماتها وسلفتها فهيمة يجلسان في الدهليز. بادرتها الست أم طاهر مداعبة «تعالي غربلي لنا كيلتين غلة حتى نتبين ما اذا كان المهر الذي دفعناه فيك حلال أم حرام؟» وبحسم وبلهجة هادئة أجابت الست سعاد «يا نينة نحن ما زلنا في الصباحية.. أيضا أنا لم أتعود أن أغربل وأعجن وأخبز ولا أخرج من البيت»

ردت الست أم طاهر باستنكار:

- اذا من سيعمل شغل البيت؟

أجابت: أنا أطبخ فقط بعد ما يؤتى لي بالخضار واللحم من السوق

وترد فهيمة الفنجري: لا بد أنا من سيعمل شغل البيت من غسل وكنس ومسح وشراء من السوق.. أنا خادمة

الهانم .

وتجيب الست سعاد : ما من أحد قال ذلك .

- واذا من سيعمل الحاجات التي ذكرتها ستك أم طاهر؟

- اسمها نينة وليست «ستك» . . وهذه الحاجات يؤتى لها بخادمة تشتري الطلبات وتعجن وتخبز وتكنس . . نحن لدينا خادمة طوال عمرنا .

وترد الست أم طاهر : لم نتفق على ذلك مع أبيك «البك» .

- ان ذلك لا يقتضي اتفاقات . . والشرع قال . . «اذا كانت ممن يخدمن يؤتى لها بخادمة» .

- ليست لنا قدرة على ذلك ، فليأت لك أبوك «البك» بخادمة على حسابه يا حبيبتي .

واعترضت فهيمة الفنجرية قائلة :

- ومن ليست لديه قدرة على الاتيان بخادمة لابنته تصبح رأس أبنته برأس الخادمة . . يا حلاوة .

وتجيب الست سعاد فى أدب وحسم :

- هذا ليس شغلي . . أنا كنت فى مدرسة الأمريكان ، ولولا اصرار بابا على زواجي لما تركت التعليم ؛ وترد فهيمة الفنجرية بتهكم :

- تقول لك كانت فى مدرسة الأمريكان . . لا عليك نحن تلاميذ مدرسة عزبة صقر .

ويعلم طاهر أفندي بما دار بين أمه وزوجته وفهيمة التي أشعلتها نارا وأيدتها أمه فيما تقول. ويحضر الاستاذ «علي البكري» والد الست سعاد ناظر المدرسة ليستطلع الأمر، ويرضى بحكم الحاجة أم طاهر بأن يأتي لابنته بخادمة تقوم على خدمتها على نفقته، وينتهي الأمر بالسلام يغمر أرجاء البيت. حتى اذا كان ذات يوم طلبت فيه فهيمة من الخادمة نظلة أن تقوم عنها بأعمالها، فرفضت وأيدتها الست سعاد في ذلك وقالت في دبلوماسية بنات الذوات:

- نظلة هنا لتخدمني أنا ونينة فقط.

وتثور فهيمة وتضغط على زوجها ناصح أن يؤجر لها بيتا خاصا أو أن يبني لها بيتا، وبالفعل قسم الميراث مع أخيه وأخذ المال والتجارة وترك له الأرض والبيت واشترى منزلا قريبا من منزل أخيه - فهو رغم كل شيء - يحب أخاه ولا يستطيع أن يبتعد كثيرا عنه. فأخوه طاهر أفندي متعلم وكثيرا ما ينصحه بما تثبت الأيام صحته. وسجلت القسمة في الشهر العقاري وعرف كل ذي حق حقه وتسلمه. لكن «الشباب والفراغ والجدا... مفسدة للمرء أي مفسده».

كان ناصح يفتح دكان الأقمشة الذي يمتلكه حتى الساعة الرابعة فقط على غيرعادة التجار، وبعد ذلك يتجه الى النادي حيث يلعب رياضة رفع الأثقال ثم منه الى المقهى حيث

الأصدقاء وزملاء المهنة حتى آخر الليل؛ بعدها يعود الى فهيمة التي لا تسلمه نفسها أبدا الا بعد قائمة من الطلبات الشخصية، والطلبات لا تفرغ فهل لا تفرغ نقوده أيضا؟

مر طاهرأفندي المصري على مهندس التنظيم في بلدية السنبلاوين لكي يعتمد تصميم البيت منه. وفوجئ بأنه لكي يعتمد الرسم لا بد أن يرشوه بخمسة جنيهات، أعطاها له بقرف لأنه صدم فيه فقد كانت فكرته عنه أنه نظيف كما كان يوحي مظهره الخارجي بذلك، ودعا الله في سره ألا ينعكس ذلك على معاملته لابن مهندس التنظيم فهو تلميذ فى المدرسة التي يعمل بها، وقال لنفسه ما ذنب الولد فى كون أبيه مرتشيا؟، حقا صدمت فيه لكن الصدمة الكبرى أن يعرف الولد ذلك عن أبيه.

***

بدأ حفر الأرض لوضع الأساس. ثم بدأت عملية الدك ورمي حصيرة المسلح. وكان طاهر أفندي يفترض أنه سيبني خمسة طوابق وفقا لما جاء في الترخيص، لذا حرص على وضع أساس قوي للبنيان حتى يتحمل صروف الزمان.

- ٥ -

حلت الأحزاب، وتشكلت هيئة التحرير وصار لها ناد يحمل اسمها في كل المدن الكبرى بشتى انحاء الجمهورية وانضم لها كل طامع الى السلطة من العمدة والأعيان، حتى من كان منهم من أتباع قادة الأحزاب المنحلة في هذه المدن في العهد البائد، ظنا منهم أنهم الورثة الشرعيون للحزبيين الذين فرض عليهم العزل السياسي، وركنوا الى الهدوء المشوب بالتحفز للانقضاض على السلطة مرة أخرى اذا سنحت فرصة.

والحقيقة أنه لم يكن بين الحزبيين في السنبلاوين من له مكانة سوى النائب الوفدي الذي يمثلها في البرلمان «سامي وهبه» وهو من احترم نفسه واحترم ماضيه في خدمة البلد وحافظ على هيبته وكرامته، بأن ركن الى الهدوء بعد فرض العزل السياسي عليه. لم يحزن على نفسه بقدر ما حزن عليه «عبد القوي تمام» التاجر الثري الذي كان يسانده في الانتخابات بالجهد والمال، لأنه كان يجني فوائد طائلة من

ورائه طوال الدورة البرلمانية التي يشكل فيها الوفد حكومته. . يكرم عن طريقه من يشاء من أهل البلد، نظير مبالغ باهظة تعوض على مدى الدورة البرلمانية ما أنفق وزيادة، ذلك بالاضافة الى الهدايا العينية من سمن وبط وأوز وخلافه بعد تعيين أبناء لهم من الجامعيين أو الحاصلين على التوجيهية أو الثقافية أو حتى الابتدائية. أما أولئك الموظفون الذين كانوا يقفون ضدهم أومع مرشحين آخرين في الانتخابات فلم تكن لتمر أيام بعد تشكيل الحكومة الوفدية حتى ينكل بهم، فينقلهم الى أقاصي الصعيد أو النوبة أو ينقلهم الى وظيفة مرهقة، وربما وظيفة أقل في منطقة نائية. واذا اراد لهم المهانة أسند لهم وظيفة أقل في نفس البلد حتى يشهد الناس بعيونهم مدى سطوته وانتقامه، تماما كما حدث لوالد الست سعاد حرم طاهر أفندي المصري. في ذلك العهد الماضي كان الاستاذ علي البكري ناظر مدرسة وكان يلقي خطبا في سرادقات الدعاية الانتخابية مؤيدا «حسين العدل» مرشح الأعيان، اعتقادا منه أن مرشح الأعيان يستطيع أن يقدم للبلد بماله وبمال غيره من أنصاره الأعيان خدمات كثيرة، دون أن يسعى الى تعويض ما أنفق على دعايته الانتخابية، كما كان يفعل سامي وهبه ونصيره عبد القوي تمام. ربما كان سامي وهبه على غير علم بما يفعله عبد القوي

تمام. . وربما كان يعلم. . من يدري. المهم أن الاستاذ علي البكري نقل فور تشكيل الحكومة الوفدية من ناظر مدرسة الى مفتش تغذية في مدارس البلد، فأحس بأن نقله كأنه صفعة قوية ومهانة. ناهيك عما صار يعانيه من ارهاق في الاشراف على مخازن التغذية. بل ان العناء كان يصل أحيانا الى درجة المساعدة في تحميل صفائح وكراتين الغذاء، وذلك لأنهم لم يمدوه سوى بثلاثة من العمال وسيارة كثيرة الأعطال لنقل مواد التغذية الى المدارس. وكان عليه أن يضع عدد ووزن صفائح وكراتين الغذاء نصب عينيه حتى لا يغالطه العمال. لكن ما حز في نفسه هو الشماتة التي كان يراها في عيون أنصار النائب الوفدي وهم يتفرجون عليه وهو يعاني مع العمال في تحميل الصفائح، وكان بعضهم يقول ساخرا: اذهب وحاول استرضاء «البيك» بكلمتين يريحوك مما أنت فيه.

ويجيب هو: وهل شَكَوْتُ لكم أوكللت؟

ويعلق آخر: قلبنا عليك.

ويرد : دعوني لحالي.

وينصرفون وهم يعلقون عليه: أعوذ بالله وان الكبر من الشيطان.

العجيب في الأمر أنه في الوقت الذي كان الاستاذ علي

البكري يؤيد مرشح الأعيان، كان طاهر أفندي المصري زوج الست سعاد من مؤيدي سامي وهبه النائب الوفدي، وكان طاهر أفندي كثيرا ما يتناقش في حب مع والد زوجته محاولا اقناعه بأن على ربان أية سفينة شأنه في ذلك شأن رب أي أسرة، أن يعرف اتجاه الريح حتى لا تعصف بسفينته أو أسرته الأنواء. ويقترح عليه بأدب أنه «ما دام الاختلاف في الرأي لا بدَّ وأن تهون».. فانه لا بأس أن يصحبه الى سرايا سامي وهبه لتقديم التهنئة ويختم كلامه قائلا: «لتكن روحك رياضية يا أستاذ علي». ولكن زوجته التي كانت تمر بالقرب منهما علقت عاتبة: لو كان حقا سامي وهبه يشتري خاطرك والمجهود الذي بذلته بوقفتك معه لكان أكرمك في شخص نسيبك يا طاهر أفندي يا مصري.

واستفز طاهر أفندي في ذلك الوقت وعقد العزم على تكرار ما سمعه من السيدة زوجته على مسمع من سامي وهبه حتى يرى حقا ان كان له مكانة لديه أم لا.

وبالفعل توجه لزيارته. وبعد مناقشات حامية، وعتاب مرير، وعده سامي وهبه خيرا ولم يمض أسبوع حتى عاد الاستاذ علي البكري ناظرا وفي نفس المدرسة التي كان بها، لكنه رغم ذلك لم يذهب لشكر سامي وهبه، وازداد احساسه بأن شيئا ما في هذا البلد لا بد أن يحدث، شيئًا يجعل الناس

بعيدين عن التنكيل بهم بسبب الآراء، شيئًا يحررهم من ربقة الأهواء وعسف الجبابرة الأقوياء. لذلك فرح أيما فرح بقيام الثورة وداخله اعتقاد بأن أمورا كثيرة ستتغير ورؤوسا سيطويها الظلام. لكن ها هي رؤوس أخرى من أتباع العهد البائد تبزغ الى النور وتشق طريقها الى نوادي هيئة التحرير، وكونها طليقة يقلل الأمل فى حدوث التغيير الذي يرجوه الناس. فها هو عبد القوي تمام التاجر الثري ونصير سامي وهبه النائب الذي فرض عليه العزل يدعي لنفسه وللآخرين أنه صانع النواب وأنه اذا كان سامي وهبه قد فرض عليه العزل السياسي، فانه كفيل بصنع نائب جديد يليق بالعهد الجديد ولا يقل شعبية عن النائب المعزول فليس أسهل من صنع الشعبية بالجولات الانتخابية والمهرجانات الرياضية والفنية تحت رعاية مرشح جديد يكون نجاحه في نظر أهل البلد بمثابة عيد. وأن الخطب والألعاب النارية والانتخابات كفيله بانجاح صنيعته. ولا غرو، فهو صانع النواب الذي يحظى بمكانة لدى الناس تفتح له ولمن معه كل الأبواب. وتساءل الجالسون في نادي الهيئة من يكون مرشح عبد القوي تمام الجديد. هل يكون واحدًا من بينهم؟ أم أن عينه على آخرين؟ ورد أحد الجالسين:

- بالطبع لا بد أنه واحد من بيننا.. لا بد.. وهل هناك

أحد في البلد من أصحاب الوجاهة سوى من يتردد على نادي هيئة التحرير؟ .

ويجيب آخر:

- فعلا الثورة فرضت العزل على الحزبيين وباقي الناس ملخومون في أشغالهم وفي البلد لا يسمح بانضمام أحد الى النادي الا عن طريقنا، نحن نرشح وهم يوافقون على من نرشحه. أليس كذلك؟ هم يرون ما نراه. . هم يرون بعيوننا.

-٦-

وردت اشارة الى مركز السنبلاوين أن ركب الرئيس «محمد نجيب» رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة سيمر على مشارف السنبلاوين في طريق عودته من المنصورة الى القاهرة.

وهرع أعضاء نادي هيئة التحرير لاستقباله في اليوم المعلوم، وفي الساعة المحددة، وكانوا قد حشدوا الكثير من شباب ورجال ونساء البلد لهذه المهمة، لكن الناس خاصة أعضاء نادي هيئة التحرير أحبطوا لأن الرجل لم يدخل البلد بل مر مرورا عابرا لم يسمح لهم بتحقيق أملهم، أن يشرفها بالدخول الى البلد حتى يظهروا حفاوتهم به وكرم ضيافتهم ويتعرفون اليه ويعرفهم، فيشقوا بذلك طريقا فى سلك الثوريين الجدد وقادة هيئة التحرير.

عادوا الى النادي كلٌ يُخفي مشاعره الخاصة ويشيد برئيس مجلس الثورة ورئيس الجمهورية محمد نجيب فى الاقتصاد،

واستشهدوا على ذلك بقول نسبوه اليه «لماذا نلقي لقمة للقطة؟» وكان أحد الشباب على مقربة منهم فعلّق «القطة اذا جاعت تخربش ويمكن ان تعض أيضا . . انها كائن حي . . اذا لا بد أن نضع لها الطعام أو ندعها تسعى لرزقها بنفسها . حتى لا تتوحش . . وتصبح قطة برية» . كما أن من سبقونا قالوا إلا فى كل رغيف لقمة للصدقة» .

لفت نظرهم حرارة حديث الشاب . . وتوجسوا خيفة منه ومن الوجود على مقربة منه فانسحبوا واحدا . . واحدا . . دون أن يكملوا حديثهم ودون أن يصافح بعضهم بعضا . فقط تسلم مأمور مركز السنبلاوين تقريرا من كل واحد منهم على حدة بما تفوه به الشاب ، ولم يمر اليوم التالي الا وقد انتشر فى البلد خبر مفاده أن ابن «أحمد شلبي» تاجر الحدايد والبويات قد اختفى .

-٧-

انتهى الحفر والدكة وبدأ وضع الأساس فى بيت طاهر أفندي المصري - الذى انشغل ببناء بيته عن متابعة الأحداث التي تجري في نادي هيئة التحرير ومزايدات المتبارين فى تزكية أنفسهم كمرشحين لعضوية مجلس الأمة المرتقب، وتمثيل البلد كنائب عن دائرة السنبلاوين لكنه حين التقى بنسيبه الأستاذ علي البكري عرف منه أن هناك مرشحين من قبل أن يفتح باب الترشيح. ولكن كفة «محمود الألفي» صنيعة عبد القوي تمام «صانع النواب» كما يزعم - هي الأرجح لأن محمود الألفي قدم نفسه كمرشح بطريقة أكثر عملية، مما جعل عبد القوي يتبناه لذكائه. ففي الوقت الذي تَدَافَعَ كلُ من سَمِعَ الطالبَ الشابَ «سالم أحمد شلبي» يقول رأيه فى مسألة «إلقاء لقمة للقطة» الى التنديد به، وادانته ،كتابة تقرير فيه تعهد محمود الألفي أمام ابيه بأنه سيسافر ويعود له بالولد ولم يصدق أبوه لكنه قال «أنا كنت أدبح عِجْلة لأهل الله

والغلابة» .

وبالفعل سافر محمود الألفي الى القاهرة وروى لأخيه «شاكر بك» وكيل الوزارة الذي أقام علاقة طيبة بالعهد الجديد وشرح الأمر للمسئولين وأوضح أنه لا يعدو أن تكون عبارة طائشة لا يعيها الشاب وأنه ليس الا حدثا صغيرا غرا طائشا، وان الافراج عنه وعن أمثاله يجعل الناس تقبل على العهد الجديد بروح ملؤها الحب وتقضي على أي وساوس خلّفها العهد البائد .

وفعلا عاد محمود الألفي الى البلد بعد أن أرسل من يخطر أهله بأنه قادم بالولد بقطار الساعة الرابعة بعد الظهر. وبالفعل كان الوالد قد أعد عدته فحشد أقاربه واصدقاءه وجيرانه والشباب من أصدقاء ابنه واصطحب معه العِجْلة وجزارا لذبحها تحت رجلي محمود بك الألفي، وهتفوا «يعيش محمود بك الألفي» حبيب السنبلاوين مرشح الغلابة ونائب المستقبل . . فقط قولوا متى الانتخابات، ساعتها سنهتف من تنتخبون . . الألفي الأمين ابن السنبلاوين .

وكانت مظاهرة من ثمار المواقف العملية لمحمود الألفي وبداية موفقة لأية حملة انتخابية قادمة عرف بعدها من لم يكن تعرف أن محمود الألفي له شأن كبير في القاهرة وأن أخاه هو أيضا من حلّالي العقد والمشاكل المستعصية، وبذلك حلّ

محمود الألفي محل سامي وهبه فى تعيين الموظفين واعادة المبعدين وتأمين الخائفين. ترى هل يستمر ذلك فقط أم تأتي الأيام بجديد؟

كان طاهر أفندي يسجل ما يعن له من أخبار وأحداث ونبذ وطرائف فى مفكرة لديه.

ومن ضمن ما سجل من أحداث أنه في نوفمبر عام ١٩٥٤ أعفي محمد نجيب من جميع مناصبه وأعيد ثم أقصيَ نهائيا. وفسر طاهر أفندي أمر اعادته مؤقتا قبل اقصائه نهائيا على أن له صلة بمسألة السودان واتحاده مع مصر أو استقلاله اذ أن السودانيين كانوا يعدونه واحدا منهم - على حد قول طاهر أفندي - . لكن الرجل مضى على اية حال تاركا وراءه سيرة عطرة لا أكثر، ولمسات انسانية أقل من أن توصف بأنها انجازات مثل مشروع غرس شجرة.. الذي خصصوا له مساحة في السنبلاوين على طريق المعاهدة بالقرب من محطة المياه وكذلك في كل بلد. أما قطار الرحمة ومعونة الشتاء فقد كانا وسيلتين اعلاميتين للدعاية للثورة حيث يتغنى الفنانون بأغاني التأييد. أما اذا قلنا إن قانون الاصلاح الزراعي يرجع الفضل فيه اليه فانه يكون قد أنجز انجازا كبيرا لكن القانون نسب الى ثورة ١٩٥٢ ككل.

وتولى «جمال عبد الناصر» وكان ذا شخصية آسرة،

شخصية كفيلة بأن تجمع حوله العالم بأسره الأمر الذي اذا أحسن استخدامه عاد بالخير العميم على شعبه وأمته بل وعلى الانسانية جمعاء.

وحدث أن زار اثنان من رجال الثورة مدينة السنبلاوين، وكان بالمدينة مسجد يوشك أن ينتهي العمل فيه فسارعا بافتتاحه ورجاهما خادم المسجد فى نفاقٍ ظاهر ان يباركا المسجد باداء ركعتين حين رآهما يوشكان على الانصراف، بعد أن قصا الشريط وهما يمتطيان جوادين أعارهما لهما مركز شرطة السنبلاوين. وبسرعة خاطر قالا له: هذا ما كنا سنفعل بعد أن ننزل من على الجواد.

ودلف هو وزميله الى الداخل للصلاة وسط تصفيق وهتاف كبارالبلد وشبابها وأطفالها، وخرج أحدهما ليجد حذاءه وقد اختفى فلم يملك الا ان ينظر حوله ويعود لينظر الى قدميه، ويبتسم شارعا في الجلوس حتى يشتري له حذاء على مقاس قدميه. وشرع خادم المسجد يفسر لهم المسألة قائلا:

هناك قرية من أعمال بلدنا السنبلاوين يا بيك مشهورة بالسرقة. ولا بد أن السارق واحد من أهل هذه القرية.. لقد بلغ بهم الأمر أنهم خبَّأوا الحمار تحت «النموسية» تصور يا بك.. ان من سرق، لص حاف بن حاف. وضحك الزائر وقال

للمحيطين به: «لو قال اللص ذلك لي لكسوته واشتريت له حذاء جديدا. فهذا ضمن واجباتنا».

وعاد يضحك. ولم يلبث ان انصرف هو وصاحبه فور احضار حذاء جديد له، وأذيع خبر افتتاح مسجد بالسنبلاوين. لكن خبر سرقة الحذاء لم يذع رغم طرافته، وتساءل طاهر أفندي لماذا؟ وفسر طاهر أفندى ذلك بينه وبين نفسه تفسيرا طريفا ضحك له فى سرّه.

عند هذا الحد انتهت تأملات طاهر أفندي، وظهرت فى صحف اليوم التالي صورة رجل الثورة وصاحب محل الأحذية الذي اشترى منه الحذاء لرجل الثورة الذي فقد حذاءه، وهو يلبس الحذاء عند باب المسجد الذي كان يفتتحه. وسارع صاحب المحل الى شراء عدة نسخ من الصحيفة وقص الصورة وعلقها على باب المحل كما علق لافتة جديدة على باب المحل تحمل اسم «احذية الثورة». وذاع صيت الرجل ومحله وصار مقصد الناس لشراء أحذيتهم، فسبحان مسبب الأسباب. ورغم ذلك لم يمض شهر حتى تبين لرجال الأمن في البلد بعد التحقيق والتحري أن صاحب محل الأحذية هو الذي حرض طفلا على سرقة الحذاء فزجوا بوالد الطفل في السجن، وسيق الطفل الى مدرسة الأحداث، وأغلق محل الأحذية بعد مصادرة ما به من بضائع.

-٨-

كانت فكرة طاهر أفندي في بناء خمسة طوابق مرجعها أنه يريد، بعد ان رزق بثلاثة أبناء ذكور «محمد وسمير وأنس» وبنتين هما «جميلة الكبرى» وفاطمة (التي أسماها على اسم أمه الحاجة أم طاهر) أن يسكن هو وأبناؤه وبناته في البيت. وكان التقليد أن يرث الابن الأكبر بيت أبيه. لذا اختار هو البيت والأرض واختار أخوه ناصح المال والتجاره، لكن ناصح لم يكن اسما على مسمى. فقد كان ينفق ذات اليمين وذات اليسار في تبذير شديد. شجعه على ذلك رغبة زوجته فهيمة الفنجرية في أن تبدو على سعة في العيش أكثرمن سلفتها الست سعاد التي كانت تتمتع بحكمة وتدبير، غرسه فيها والدها الأستاذ علي البكري، أما فهيمة فكانت سعيدة وقد وجدت لها خادمة تسير في ركابها أينما ذهبت تحمل أصغر أطفالها، رغم أنه لم يعد صغيرا فهو في السابعة. كذلك أسهم أصحاب السوء في اقتياد ناصح الى طريق المخدرات والسهر

والفجور، لذا سرعان ما فقد صحته وثروته حتى دكانه باعه سرا، وصار يسرح ببقجة من القماش وراء ظهره في كل أسواق البلاد المجاوره ومعه المتر. فهو يذهب من كفر صقر الى برج النور أو الشعلة أو برهمتوش وأحيانا أبو كبير، لكن سوء تصرفه لازمه حتى قضى على البقجة الباقية من ماله. فقد كان يعطي كل بضاعته بالأجل حتى يشعر أنه يبيع وسرعان ما أكل عليه التجار حقوقه، والتهمت المخدرات صحته. لكن الاهمال أقعده عن استشارة طبيب حتى تنبهت زوجته على سعاله الشديد وكحته التي كانت توقظ النيام في البيوت المجاورة وبصاقه الدموي. فسارعت فهيمة الى بيت أخيه لأول مرة منذ خرجت منه بعد مشاجرتها الشهيرة مع الست سعاد. وما ان التقت فهيمة بطاهر أفندي حتى صرخت:

- ألا تسأل عن أخيك يا طاهر أفندي؟

وسأل طاهر مستغربا: خير.. ما له؟

- يبصق دما وكحته توقظ النيام.

وصفق طاهر أفندي بكلتا يديه:

- لا حول ولا قوة الا بالله.. هذه عاقبة المخدرات وأصحاب السوء.. وسهر الليالي في الغرز. ياكم نصحته.. وفي النهاية تضيع ثروته وصحته.

وتقتنص فهيمة الفرصة: ما يهمنا الآن صحته.. وأنت

أخوه والظفر لا يخرج من اللحم.

وتساءل طاهر أفندي في ألم: عرفتم ذلك الآن فقط!

وترد فهيمه فى تبجح: نعم أنت أخوه.. وملزم به. انه صاحب عيال.. كوم لحم.

- أنا أيضا عندي كوم لحم تلزمهم تربية. ومع ذلك لن أتخلى عن أخي يا فهيمة.. لكن المهم أن يسمع كلامي هذه المرة.. لأن المسألة واضحة وليست سهلة. هو الآن في مرحلة حرجة ولا بد أن نسرع بالعلاج.

- أغثنا أغاثك الله.

كانت خادمة بيت طاهر أفندي على مقربة من مجلسهما وسمعت ما قيل ونقلته بحذافيره الى الست سعاد التي لم تلبث أن استطلعت الأمرمن طاهر أفندي. وأسقط فى يدها حين قال طاهر أفندي:

- هو أخي مهما حدث يا سعاد وحين أعالجه أكون قد أنقذته وأنقذت أسرته، وخدمت نفسي وأسرتي.

- كيف تكون خدمت أسرتك؟

- اذا لم أعالجه عيب في حقي، كما أنه خطر لأن هناك اختلاطاً بين الأولاد.. أولادنا وأولاده ويمكن أن تصيبهم جميعا عدوى كما أنه لو مات - لا قدَّر الله - فأولاده ستقع مسئولية تربيتهم على عاتقي وحدي.

واقتنعت السيدة سعاد وقالت :

- كلامك عين العقل يا طاهر أفندي. اسرع بارتداء ملابسك ولتقم بعمل ما تراه.

ولأول مرة بدأ طاهر أفندي يستثمر صلاته وعلاقاته الطيبة مع أبنائه وتلاميذه ممن صاروا أطباء.

فأدخلوا ناصح مستشفى الصدر لفترة محددة لذا كان يلجأ لتلاميذه من الأطباء واحدا اثر الآخر لادخاله لمدة أخرى فى مستشفى بعد مستشفى. وتنقل ناصح من الزقازيق الى المنصورة الى المحلة الى دمياط وذلك لازدياد الطلب على الأسّرة في هذه المستشفيات بسبب كثرة المرضى. وطوال هذه الفترة كان طاهر أفندي يزور أخاه ويعول أسرته. أما سعاد فلم يكن أمامها سوى الاعتراف بالأمر الواقع - على ضيق ومضض - بسبب قلة امكانياتهم بعد الشروع فى البناء.

وأخيرا منَّ الله بالشفاء على ناصح وعاد الى بيته ولزم الراحة كما أمره الأطباء، واستجاب تحت الحاح فكرة أن المرض مميت، وعادت فهيمة الى عادتها القديمة من الشجار فى اول يوم لعودة ناصح، فبعثت مع ولدها في طلب طبقين من الصيني من الست سعاد فرفضت لسابق تجربتها معها فى ذلك. فقد سبق أن كسرت الكثير من الأطباق بعد أن قضت على طقم الصيني خاصتها هي. كما أنها كانت لا تزال تخشى

العدوى. ورفضت الست سعاد وقالت لابن فهيمة ليس من الضروري أن تأكلوا في أطباق من الصيني. ونقل الولد كلامها بالحرف الى أمه فنظرت من نافذة بيتها القريب قائلة:

- لماذا وهل زوجي يقل عن زوجك البيك، زوجي له أن يأكل فى صيني ويجلس على حرير ويكسر الصيني ويدوب الحرير في عرق العافية. وأنا فهيمة الفنجرية.

وقالت الست سعاد وهي تملي على نظلة لترد نيابة عنها:

- ما دمت فنجرية، فنجري من جيبك. مش كده والاّ ايه.

وخرست فهيمة لكنها هرعت الى زوجها لتنقل له ما قالته الست سعاد على أنها تعيرهم بأن أخاه ينفق على بيته، لكن ناصح لم يكترث فقد كان قد عقد العزم على الخلود الى الراحة الى ما لا نهاية.

وقال لنفسه إنه ليس من فرصة أمامه للعمل من جديد وهو خالي الوفاض، حتى ما كان له من نقود متبقية لدى التجار استعوض الله فيها. وقال ان أي جهد سيبذله لاسترداد هذه النقود سدى، فالتجار كالغيلان تأكل كل ما يصادفها في طريقها. وبدأ أصدقاء السوء يعودون ناصح مرة أخرى، ولكن طاهر أفندي كان دائم التردد على بيت ناصح ودائم التعنيف والتأنيب لهم وحملهم مسئولية ما حدث له،

وحذره من سوء العاقبة اذا عاد الى صحبتهم، وكانت فهيمة ترى فى موقف طاهر أفندي من أصدقاء السوء الذين يترددون على ناصح مصلحة لها ولأولادها لذا كانت تؤيده. ووصل بها الأمر الى القول إنه غير موجود كلما جاءوا اليه. أما هو فكان يقول «انهم بيسلّوني يا فهيمة. . النهار طويل والليل أطول».

وترد هي: الليل الذي سيعيش فيه أولادك - لو حدث لك مكروه - لا قدر الله - أطول يا ناصح. . افهم لو كنت ناصحا حقا.

ويغلب على أمره فيصمت، لكن يبقى الفراغ وقلة حيلته ونفاذ صبره ورغبته في صحبة تؤنسه جعلته يتسلى بالحديث مع أصدقاء أولاده من شباب الثانوي، حين كانوا يجيئون لزيارة أولاده، كان يحكي لهم عن براعته في حمل الأثقال ويدّعي بطولات وهمية. . ومشاجرات دائما تنتهي بانتصاره على فتوة «عزبة النخل» أو فتوة «البرجاس» أو فتوات «السوعة» «والقطع» وغيرها. وكثيرا ما تحدث عن النساء اللواتي كن يتهافتن عليه لفتواته وجمال طلعته، ووصل به الغباء الى الحد الذي ادعى فيه ان ابنة عمته كانت تحبه وأنها تزوجت رغما عنها. ولكنها ظلت تقابله سرا بعد زواجها. عند هذا الحد دخلت عليه زوجته التي تتمتع بحاسة سمع

قوية وعادة التصنت متمكنة منها . . . . وصرخت في وجهه : عيب يا ناصح . . عيب يا راجل انها ابنة عمتك . معنى ذلك أنها فى طاقيتك . . لا تجعل العيال الذين فى عمر أولادك يسمعون هذا الكلام الفارغ ويضحكون عليك ويضحكون البلد كلها عليك . قصرت رقبتنا في كل جهة . . لا مال ولا صحة . . ولا شهامة .

وانسحب الشباب من أصدقاء أبنائها في هدوء واحدًا واحدًا ليوفروا عليه الاحساس بالحرج ، فالموقف ولا شك مخزٍ يندى له الجبين .

-٩-

تعالى البنيان فى منزل طاهر أفندي سريعا وانتهى بصّب الطابق الأول وبدأ التبليط بعد أن تم تركيب الأدوات الصحية، ثم انتهى تركيب النجارة والأبواب والنوافذ. ولأن طاهر أفندي رجل اقتصادي اختلف مع زوجته واولاده حول أولويات الأشياء، مثلاً هل يطلي البيت أولا من الداخل أم من الخارج؟ . وطال أمد الخلاف ذلك لأن المبلغ المتبقي للطلاء محدود، لذا انتهى الأمر بهم الى العودة لسكنى بيتهم وإرجاء التفكير في الأمر. البيضة أولا أم الدجاجة؟ طلاء البيت من الداخل أولا أم من الخارج؟. كانت وجهة نظر الست سعاد أن يطلي البيت من الخارج أولا فالمظهر مهم. . والبنتان كبرتا والعرسان سرعان ما سيجرون عليهما. أيدها فى ذلك الابن الثانى سميرلكن الأكبر محمد أضاف الى وجهة نظر أمه أن تطلى أيضا غرفة الصالون لأن أي ضيف للبنات سيدخلها اولاً، وكان رأي طاهر أفندي أن طلاء البيت كله

من الداخل ضروري للأسرة فالمهم راحة الأسرة أولا. . ولا داعي للمظاهر والنفخة الكذابة التي تقتضي طلاء البيت من الخارج واهماله من الداخل.

وعلقت الست الحاجة أم طاهر قائلة: نعم. . يكون من الخارج. . الله الله ومن الداخل يعلم الله.

وضحك أفراد الأسرة جميعا من التعليق الساخر للجدة العجوز وأرجأوا التفكير في الأمر مرة أخرى لتثبت أمهم الست سعاد برأيها: أن تكون واجهة بيتهم جميلة لأن «البنات على وشك الزواج» رغم أنهن كن لا زلن في فترة المراهقة، لكنها تذرعت بأنها خطبت في مثل هذه السن.

وعلق طاهر أفندى أنه لولا مرض ناصح وإضافة أعباء أسرة أخيه على أعبائه «لأمكن عمل كل ما نتمناه لبيتنا وربما كنا أضفنا طابقا أو اثنين، لكن الأمر لله من قبل ومن بعد».

وتختم الست أم طاهر: أخوك. . . ولا بركة لك الا به يا طاهر.

لكن الست سعاد تقول: ما يحتاجه البيت يحرم ع الجامع يا حاجة.

وترد الحاجة: بيت أخوه وبيته واحد.

قسمنا من زمان يا حاجة. . هل كانوا أعطونا شيئا. . أو عملوا حساب الظروف أو المستقبل.

وتعتب الست أم طاهر: **ظروفكم جاءت كذلك يا سعاد يا بنتي.**

نحن أيضا لنا ظروفنا.. البنات على وشك الزواج.. ويلزمهم جهاز كثير.

وتنفعل الست أم طاهر غاضبة: وقتها يعين الله يا سعاد. فضيها سيرة.

وتنسحب الست سعاد قائلة: أنتم كذلك الحق ساطع أمامكم مثل الشمس وتحيدون عنه.

ويرد طاهر أفندى في غضب على سعاد لأجل خاطر أمه: كفى يا سعاد.

- ١٠ -

سحب البنك الدولي عرض تمويل السد العالي. وكان رد عبد الناصر عليه صفعة قوية للغرب. . أعلن تأميم قناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية. ساعتها صفق له الجميع حتى الجالسون الى جوار الراديو رأوا في هذا القرار ردا لحق سليب، واعترت طاهر أفندي المصري لحظة صمت. . اطراقه تذكر خلاله ما قصَّته أمه عليه من أخذ السلطة لجده الى منطقة القناة حيث كانت تجرى أعمال الحفر. . وهناك مات ودفن. . ولم يره أحد منذ ذلك الحين. لكنه كان دائما يتراءى له كلما رنا الى الماضى البعيد. . أو كلما أنجبت له زوجته وليدا. . كانت هنا حاله في مثل تلك المناسبات، يعتريه القلق ويعلو وجهه وجوم، لكنه كان يكتم حزنه ويكظم غيظه. والآن ها هو الحق يعود الى أصحابه. . ويستطيع الأب أن يطمئن على أولاده واذا خرج يطمئن أولاده الى أنه سيعود، لكن جده الذى ذهب لن يعود حتى

بمقتضى قرار التأميم هذا، وقرر طاهر أفندي أن يذهب هو اليه . . يحج الى مثواه على مدى الحياة .

وكان أن نظَّم رحلة مدرسية الى منطقة القناة وقصَّ على تلاميذه أمام مياه القناة قصة الذين كانوا يذهبون الى هناك ونادرا ما كان يعود منهم أحد، وجده الذي دفن أثناء حفر القناة ورحل عن الوجود. وأنه غير سعيد لوفاته بعيدا عن جدته وابنه الوحيد، ودمعت عيناه وعيون التلاميذ تأثرا من القصة وسقطت من كل عين عبرة أضافت الى ملوحة ماء القناة الذي اختلطت بها وبدموع كثيرة سبق أن ذرفت أثناء الحفر في هذا المكان الذي كان ذات يوم قفراً. وعاد التلاميذ من الرحلة بعد أن رأوا لطاهر أفندي وجها جديدا لم يكن قد رأوه فيه من قبل. ولم يفت طاهر أفندى أن يحذر زملاءه من أن الغرب لن يسكت، فالقرار ليس بالأمر الذي يسهل عليهم تقبله خاصة بريطانيا العظمى التي لا زال لديها بقية من عنجهية. فهي قديما صاحبة الأمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، ورغم ثقته بصلابة عبد الناصر إلا أنه كان يشفق عليه من خطر مبهم بالنسبة له حتى الآن خطر داهم، ورغم ما كان يسمعه ويقرأه أثناء مؤتمري لندن الأول والثانى من قول المستخفين أن المؤتمرين قد تمخضا فولدا فأرا، الا أنه كان لا يزال ينتظر حدوث شيء ما . . شيء يزلزل كيان أولئك

الذين لا يملكون أكثر من الطبل والزمر. . كذابي الزفة الذين لا تجدهم ساعة يدوي صوت النفير.

وبالفعل تطورت الأمور الى أن أصبح الأمر جد خطير وفي جوف الليل دوى صوت محمد غبور:

- إصح يا بلد. . بريطانيا وفرنسا هجموا على البلد. . هجموا على بور سعيد. . واسرائيل هجمت على منطقة الكونتلا. . إصح يا بلد. . إصح يا بلد. . الحرب قامت يا بلد.

وايقظ الناس خبر الشؤم على لسان محمد غبور الذي لا يسمع الا في الشدائد. وانتظم الشباب في كتائب الحرس الوطني والمقاومة الشعبية بعد أن دوَّى صوت عبد الناصر في الجامع الأزهر ومن خلال المذياع ليعلن أنه سيقاتل، وكذلك انتظم الموظفون ممن تجاوزوا سن الشباب في قوات الدفاع المدني التي تحرس وترعى المرافق العامة وكان منهم طاهر أفندي، وكم كان اغتباط طاهر أفندي كبيرا وهو يشهد تدريب ابنه محمد الذي وصل الى الثانوية العامة - فى كتائب الحرس الوطني - ولشد ما كان اغتباطه وهو يرى ابنه سميرا الذي كان لا يزال فى الشهادة الاعدادية وهو يعود من مكتب التطوع في كتائب الحرس الوطني باكيا يرجو أباه أن يعطيه جنيها ويخصمه من مصروفه على مدى أيام العام. وحين سأله

لماذا؟ قال له لأن الضابط عبد الموجود قال له ان سنه لا يسمح . . لكنه اذا كان مصرا واذا كان والده موافقا عليه أن يعطيه جنيها حتى يتأكد من جديته في طلب الانضمام . وسرّ الأب وفهم ما يقصد عبد الموجود فهو صديق وزميل كمدرس . . وهو في نفس الوقت كان ضابطا احتياطيا ومن فدائيي حرب فلسطين وحاصل على بعض النياشين لاشتراكه فيها . وتوجه سمير الى الضابط عبد الموجود بعد أن حصل على الجنيه ورسالة من والده اليه لا يعرف سمير مضمونها . وفض الضابط عبد الموجود الرسالة وقرأها ثم أعاد الجنيه الى سمير وقبله وقال له ستكون في موقع يسمح لك بمشاهدة التدريبات حتى تلم بتفاصيلها وبعدها أتيح لك فرصة مناسبة . . لكنك ستكون معنا من اليوم .

كان سمير يتابع بانتباه التدريبات الأولية على استخدام البندقية الروسية نصف الآلية والرشاش كارل جوستاف الذي أطلق عليه فيما بعد «بور سعيد» ويسمع التعليمات التي منها «حاذي سن نمل الدبانه مع أكتاف الناشنكاه أسفل منتصف الهدف» .

وجذب انتباهه بائع الثلج الذي كان كثيرا ما يتوجه الى حيث كان يقف بعربته على القنطرة ليشتري منه بقرشين ثلجًا وكيف هجر عربته وانتظم في صفوف الفدائيين ليس من أجل

المبلغ الذي يصرف لهم أول كل شهر، ولكن لأنه كان يتمتع بشهامة وروح فداء ونزعة قتالية عالية. كما لم يفت سميرًا ولا أحدًا من مشاهدي التدريبات روحه القيادية. فبعد أن جرب الضابط عبد الموجود عدة أفراد في قيادة الكتيبة اقتنع أكثر بعبد البر بائع الثلج ليس لأنه يتمتع بقوة حنجرة كالآخرين فقط، ولكن لأنه قادر على اثارة حماس المتطوعين وجمعهم تحت لوائه. فهو ذات روح محبة وعاطفة وطنية صادقة جياشة كفيلة بتوحيد الصف بين المتطوعين وجعلهم تواقين لأداء الواجب الوطني بهمة عالية مثله.

وتوالت التدريبات حتى بعد أن هجمت فرنسا وانجلترا واسرائيل. فوج بعد فوج بعد فوج كما توالت عمليات الترحيل الى الجبهة. وسمير يرجو أن ينال هذا الشرف في فوج ما يوما ما. لكن الضابط عبد الموجود كان يقنعه بأن وجوده الى جواره أثناء التدريبات مهم ولا يقل أهمية عن وجوده في الجبهة، فهو مساعده الأول.

لم يفت محمود الألفي أن يتزعم عملية تعبئة الشباب للتطوع في كتائب الحرس الوطني وقوات الدفاع المدني والاسعاف. فقد كان له من الحماس والوعي والشباب ما يجعله يؤلف كتائب من الطلبة وشباب البلد بوجه عام، ولم ينسَ الناس له أنه تدخل للافراج عن سالم أحمد شلبي الذى

كان قد اعتقل بسبب عبارة طائشة. قلة من الشباب هم الذين تخلفوا عن الالتحاق بكتائب المقاومة أو الحرس الوطني أو الدفاع المدني، هؤلاء هم السلبيون الذين كانوا لا يحبون المشاركة وطابعهم اللهو أو الجلوس في المقاهي. وقلة قليلة جدا كانت تقول إن استذكار الدروس استعدادًا للامتحان أهم من الالتحاق بكتائب المقاومة لأن الحرب ستنتهي ربما بالنصر وربما بالهزيمة. . . لكن الامتحان سيأتي حتما. . ولا بد من أخذ العدة له.

وكان «جابر السبكي» رغم اجتهاده أحد هذه النماذج السيئة للسلبيين. . وكم من شجار دار بينه وبين زملاء له انخرطوا فى العمل بالدفاع المدني حين يصرخون فيه «أطفئ النور» عند حدوث غارة وكانوا يصفونه بعدم الوطنية بينما هو يصفهم «بالصياعة». لكنه كان يرضخ ويطفئ النور على مضض خشية الابلاغ عنه.

مع بداية الحرب كانت أولى قصائد طاهر أفندى الوطنية بعد الثورة وكان يلقيها من ميكرفون الاذاعة المحلية المدرسية، وينشرها فى الجريدة الاسبوعية المحلية التي تصدرها السنبلاوين.

أخي قد تهاوى على بورسعيد
ذباب العدو البغيض العنيد

تـــآمــرت انــجلــترا المـاكــره

وغـــوريـــون والـــدولـــة العاهره

عـــلى مـــصـــرنـــا الثـــائـــــره

فهـــل علـــمـــوا أنهـــا القاهـــره[1]

ثم هز استشهاد «جول جمال» الضابط السوري في عملية بحرية بالطوربيد ملكة الشعر عند طاهر أفندي، فكتب قصيدة صارت على لسان الناس رمزا لأمانيهم في الوحدة العربية. لكن كم كانت صدمة طاهر أفندي وزملائه المدرسين حين سمعوا المذيع يقول ذات ليلة ان الحرب في بور سعيد قد تحولت لتكون من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع.. وتجسدت مخاوفه في سؤال وجَّهه الى زملائه: ماذا يعنى هذا؟ ودار الحوار التالي بينه وبين الجالسين

- كما أنت سامع.

- واضح جدا أنهم دخلوا بور سعيد.

- لكن لم يستتب الأمر لهم بعد.

ويصرخ طاهر أفندى: ولا يجب أن يستتب لهم الأمر أبدا.

- لا يجب.. ، ماذا بيدنا حتى نفعله؟

---

(١) من قصيدة للشاعر طه موسى البيومي

- يجب أن تكون المعركة شعبية .
- هي كذلك منذ البداية .
- هل تظن أن الانذار الروسي سيجدي؟
- بمرور الوقت سيتضح كل شيء .
- لا يجب أن ندع الوقت يمر لا بد أن نعمل شيئا .
- المهم الآن . . موقف أمريكا .
- سيتضح موقفها في الأيام القليلة القادمة .
- لا بد أن تفعل أمريكا شيئا .
- لا يجب أن ننتظر حتى يعمل أحد من أجلنا . ما لنا بروسيا وأمريكا . . نحن لا بد أن نفعل الكثير.
- ماذا بيدنا؟
- أنا ابني في بور سعيد . . ترى كيف حالك يا بني؟ . . أنا لست خائفا عليه .
- وماذا تسمي قلقك هذا وخوفك؟
- هذا حب أب لابنه .
- لماذا بعثت به الى بور سعيد اذا كنت هكذا؟
- حبا فى مصر.
- أنت شاعر . . ولسنا مثلك شعراء يا طاهر أفندي .
- اني أقول ما أحسه .

- كلنا نحس نفس الاحساس. ولكنك موهوب يا طاهر أفندي وتعرف كيف تعبر عن احساسك.

ولما انتصف الليل عاد طاهر أفندي من مدرسته حيث مقر لجنة الدفاع المدني، وعاد حزينا متثاقل الخطو ليرقد ليلته دون عشاء. فلم يعد للأكل في فمه طعم، وكذلك لم يحلُ له كالعادة، أن يتكلم أو حتى يتمتم بقصيدة.

وفى الصباح الباكر استيقظ على طرق «اسماعيل» ابن عمه الفلاح العجوز ليسأله فور أن فتح له الباب وحتى قبل أن يقرأه السلام أو تحية الصباح:

- ما أخبار الجيش يا طاهر أفندي؟

رد طاهر أفندي: الأخبار كانت رديئة آخر الليل يا اسماعيل.

- كيف؟

- الانجليز والفرنسيون دخلوا بور سعيد.

- والعمل؟

- العمل عمل ربنا يا اسماعيل.

- ونعم بالله. ولكن هل نسكت؟

- أقعد يا اسماعيل.

- افتح الراديو لنسمع الأخبار

ويفتح طاهر أفندي الراديو ليسمع خبر خطف الضابط «مور هاوس» قريب ملكة انجلترا أثناء تفقده للمدينة.

ويصرخ اسماعيل: لينصر الله الفدائيين.

ما كان يعجب طاهر أفندي في موقف القيادة المصرية أكثر من غيره.. هو الصدق الاعلامي. كانت نغمات الاعلام تتطور مع كل موقف حسب حجمه.. النغمة كانت في البداية جهورية.. ثم راحت تخفت وتعلو حسب سير الأمور. وقال طاهر أفندي إن الصدق منجاة.. وان الأمر الآن رهن بصلابة المجاهدين ومعلق بارادة الله. وراح يغني بينه وبين نفسه. «الله أكبر فوق كيد المعتدي والله للمظلوم خير مؤيد».

ومرت أيام طويلة قبل أن يأتي الفرج ويصدر قرار مجلس الأمن الذي ألزم دول العدوان الثلاثي بالانسحاب بعد أن كانت قد تمركزت في سيناء ومنطقة القناة. واستراح الناس لأن المجتمع الدولي - وأمريكا خاصة - ضغطوا بشدة لتطبيق قرار مجلس الأمن. لكن ما أثلج صدر طاهر أفندي هو أن المقاومة لم تتوقف رغم القرار الى أن تم الانسحاب. عند ذلك أحس أن له الحق في استقبال ابنه محمد استقبال الفاتح. وراح يردد اكثر من مرة أمام الناس أن له ضلعًا في النصر وأن ابنه فلذة كبده قد شرفه وشرف نفسه وشرف البلد مثله مثل

أقرانه، وأنه الآن يحس أن ابنه ولد ليكون فارس زمانه، وراح يحتضن ابنه ويضمه الى صدره بقوة هو أهل لها بما له من شباب وقوة تحمّل وبما له من عاطفة تجاه أبيه الذي كان دائما مرشده ومعلمه ونبع قواه.

ولأول مرة تميز الست سعاد «أم محمد» بينه وبين اخوته في الطعام الموضوع أمام كل منهم على المائدة لكنها لم تترك الأمر دون توضيح فقالت لاخوته: كنتم تأكلون من يدي كل يوم من كل صنف وكان غائبا عني دهرا. لم أدرِ ماذا كان يأكل وهو بعيد عنا فتدافع الاخوة كل يضع ما يخصه من اللحم أمام أخيه الكبير. منذ ذلك اليوم فقط صاروا يقولون له «أبيه محمد» وبدأت معاملتهم له تتخذ طابع الاكبار. تتنافس أختاه الصغيرتان على تقديم الشاي له وهو يذاكر ليعوض الوقت الذي استغرقته المعركة. فهو في الثانوية العامة التي تستلزم الكثير من الجد في المذاكرة، معركة أخرى لا بد له من المثابرة فيها حتى يعزز النصر بنصر آخر مؤزر خاصة وان ابن عمه ناصحًا أحد منافسيه فى الثانوية العامة.

-١١-

فتح باب الترشيح لأول انتخابات برلمانية بعد الثورة وبدأت بالفعل معركة الانتخابات حامية الوطيس. ومما جعلها تزداد اشتعالا اقدام اثنين من الأثرياء من أبناء قرى من أعمال مركز السنبلاوين هما «كامل الحناوي» من كفر الروك و«بدر الحجازي» من الشعلة، وراحا ينفقان على المعركة الانتخابية ببذخ شديد مما جذب اليهم كثيرين من النفعيين والباحثين عن المصلحة الشخصية. فكر عبد البر في أن دوره في معركة بور سعيد يؤهله لخوض معركة الانتخابات وتقدم لترشيح نفسه لكنه فوجئ بأن طلبه قد رفض لأن اسمه ليس مدرجا فى جداول قيد الناخبين، الأمر الذي أراح بقية المرشحين الذين كانوا يخشون من ترشيح عبد البر. فله مكانة لا يستهان بها بين الشباب رغم أنه رقيق الحال لا يمكنه الانفاق على معركة انتخابية تستلزم الكثير من المال. أما محمود الألفي فكان ينفق بحكمة لم تمنعه من عمل مخصصات

للقائمين على حملته الانتخابية، بل ان سكان بيته تراخوا في سداد ايجار الشقق التي يسكنونها ورأوا في ذلك مقابلا لمشاركتهم له فى حملته الانتخابية. . فلزم الصمت حتى لا يصطدم بهم فى ذلك الوقت العصيب.

وذهب محمود الألفي فى زيارة «لفريد بك» ظاهرها أنه يرغب في أن يكون فريد بك هو نائب البلد لولا العزل الذي فرض عليه. وهدف الزيارة هو الحصول على تأييد فريد بك ومن له سلطان عليهم من العاملين في أراضيه وشركاته الباقية. وكذلك استطاع أن يستنفر عبد البر والشباب الملتفين حوله لنصرته بمداهنته بأنه عدة البلد للمستقبل والمعارك القادمة، ووعد بأن يناصره فى أية انتخابات قادمة بل ويموّل معركته الانتخابية فى المستقبل.

كان كامل الحناوي وكذلك بدر الحجازي لا يجرءون على تعليق ملصقات دعاية انتخابية فى مدينة السنبلاوين وذلك لوقوف المدينة صفا واحدا وراء محمود الألفي بعدما شهدوه منه من حماس أثناء حرب السويس. شرذمة قليلة وقفت خلف «أحمد بكر» الذي ادعى قرابة بأحد أعضاء مجلس قيادة الثورة وأنه أخذ منه كلمة. لكن محمود الألفي كان من الذكاء بحيث اتصل بهذا العضو وقال له: اذا كنت سيادتك أعطيت كلمة فعلا لأحمد بكر، فنحن على استعداد للتنازل،

ولكن العضو نفى معرفته بشيء من ذلك علنا مما أحرج أحمد بكر. وأنزل قدره فى عيون أهل الدائرة كلها. بالمثل كان محمود الألفي لا يستطيع أن ينزل بسيارته الى كفر الروك أو الشعلة لأنهما منطقتا نفوذ قوي لكامل الحناوي وبدر الحجازي ويخشى من وقوع حوادث.

لكن كامل الحناوي كان يجتذب أصواتا من السنبلاوين باستدراج أصحابها من البسطاء والمعدمين والحشاشين المدمنين الذين هم فى حاجة دائما الى النقود وكذلك الشباب المسرفين. ويكاد يكون ذلك يوميا. فى كفر الروك عشاء يليه الشاي والقرفة والسجاير التي كانت توزع بلا حساب هذا بالاضافة الى النقود.

كذلك كان محمود الألفي يبعث بجواسيسه الى كفر الروك والشعلة لمعرفة مَنْ مِنَ أهل السنبلاوين يتردد على هذين المرشحين حتى يستطيع أن يقدر موقفه الانتخابي وحتى يعد لكل أمر عدته. قوة بدر الحجازي في الشعلة كانت تتلخص فى أصوات النساء. فعند آخرقيد للمواطنين من أجل جدول الانتخاب لم يترك فتاة بالغة أو امرأة عجوز الا واستخرج لها بطاقة انتخابية، فصارت الأصوات أكثر من الضعف مما جعل أصوات الشعله عددا لا يستهان به. ونفوذ بدر الحجازي في قريته جعل هذه الأصوات حكرا عليه. وكان

كثيرا ما يثير صراعًا في السنبلاوين تحت حماية شرطة السنبلاوين ويباهي بأن نصره مؤكد.. ويردد في حماس «سأنتصر. . سأنتصر. . سأنتصر». فيرد عليه أنصار محمود الألفي محاولين تشويه صورته في هذا البلد الريفي البسيط قائلين «بالنسوان. . بالنسوان». لكن بدر الحجازي كان يحاول استثمار ذلك الهتاف لصالحه فيقول «النساء هنَّ أمهات الرجال وأخواتهم وبناتهم والمرأة نصف المجتمع، المرأة فى عصرنا الحديث تقف على قدم المساواة مع الرجل». هو مصيب فيما يقول، لكن صوته يضيع وسط صراخ الشباب من المتعصبين لمحمود الألفي، فينسحب في أسى دون أن يتمكن من مواصلة القاء خطبته.

المنافسة على أشدها بين محمود الألفي وكامل الحناوي. فقد كثر المترددون على كامل الحناوي من أبناء السنبلاوين، كما أن هناك من يؤيده في الخفاء من المثقفين بسبب وعود بخدمات للبلد لا يقدر محمود الألفي على الانفاق عليها.

وطاهر أفندي بحكم صلات كثيرة بأسرة محمود الألفي، قديمة عمرها من عمره وهو تلميذ صغير، بدأ يتردد على محمود الألفي لمؤازرته في حملته بناء على دعوة منه، وانتهز الفرصة مرة ليطلب منه أن يلحق أخاه ناصحًا بوظيفة في

الوحدة الزراعية بالسنبلاوين، لكن محمود الألفي انتهز الفرصة ليعاتب طاهر أفندي ويكشف له عن شيء في نفسه فقال:

- كان من عيني، لكن أخاك ناصحًا ليس ناصحا، أنت تسعى من أجله وهو قاعد يحشش عند الحناوي في كفر الروك.

وصعق طاهر أفندي فصرخ قائلاً:

- ماذا تقول يا محمود بك!

- أقول ماسمعت.. من أجل الحشيش يؤيد كامل الحناوي ويهتف له.. ويجمع له المؤيدين.

واصفر وجه طاهر أفندي وصار مثل الليمونة من الخجل واستبد به الغضب ليس من أجل محمود الألفي أو أجل الوظيفة التي طلبها منه، وانما غضب لأنه أنفق الكثير لعلاج ناصح من مرضه الصدري ورغم ذلك عاد الى المخدرات والسهر مع رفاق السوء، وعلى الفور توجه طاهر أفندي الى بيت أخيه وسأل فهيمة في غضب:

- أين ناصح؟

- ليس هنا

- أين راح؟

- لا أعرف والله يا طاهر أفندي.

- اصحبيه الى بيتي حين يرجع .
- خير . ماذا حدث يا طاهر أفندي؟
- ستعرفان عند حضوركما .
- حاضر . اللهم اجعله خير.

وانصرف طاهر أفندي في صمت مشوب بالغضب، ودخل بيته مكفهر الوجه عبوسًا لكنه كظم غيظه حتى جاءه ناصح يتوكأ على فهيمة زوجته وتساءل وهو لا يعرف ماذا ينتظره حتى سأله طاهر:

- أتعرف ان المخدرات هي التي تسببت لك في المرض من قبل أم لا ؟
- أعرف يا طاهر أفندي .
- وتعرف أنك عرضة لأن يرد عليك المرض أم لا ؟
- أعرف يا أخي .
- تعرف وذهبت لتحشش في كفر الروك .
- من قال ذلك؟
- الرجل الذي ذهبت أرجوه كي يجد لك عملا تأكل منه وتعول أولادك .
- من؟
- محمود الألفي .
- أتحداه اذا كان قد رآني أو رأيته .

- رجاله رأوك في كفر الروك تتناول العشاء عند كامل الحناوي وبعد ذلك كانت الجوزه.

- الجوزه كانت حاف بدون غموس.

- حاف أو بغموس.. الدخان كله ممنوع عليك حتى السجائر. أنا لم أعد أقدر على مصاريفكم أنا عندي أولاد يلزمها تعليم بمصاريف في الجامعة وعندي بنات يلزمها جهاز.

- وماذا كان قد حدث؟

- حدث أنني أبني فيك وأنت تهدم نفسك وبيتك وعيالك.. لقد احترت معك يا ناصح. اعمل ما بدا لك فانك الجاني على نفسك، وانتفض طاهر أفندي خارجا من حجرة الصالون تاركا ناصحًا وزوجته بمفردهما. ودخلت الست أم طاهر مستطلعة سبب ثورة طاهر أفندي فقالت:

- خير يا ناصح؟

- لا شيء يا أمي.. كل ما هنالك نفسين من الدخان المعسل حاف.

- حاف أو بغموس.. أنت تعرف أنك ممنوع من كل أنواع الدخان، وكيف عرف أخوك؟

- من جواسيس محمود الألفي في كفر الروك.. لو أعرف من هم.

- أناس منكم فيكم.. المهم أنك لا بد أن تقر بخطأك وتعتذر لأخيك.

وتهب فهيمة منفعلة قائلة:

- قولي يعتذر للرجل الذي كان سيعينه.. محمود الألفي.. فطاهر أفندي أخوه ومقدور عليه.

وتعنف الحاجة أم طاهر فهيمة قائلة:

- عيب يا فهيمة.. أخوه أولا، فهو اخوه الكبير وما عمله من أجله ليس بالقليل، انه حمل.. تعرفين أنه يحمل مسئولية البيتين حتى الآن، ألا تخجلون من أنفسكم!

وجهش ناصح بالبكاء وهو يقول:

- تمنون عليّ بوقفتكم الى جواري في المرض يا أمي.

وترد الحاجة أم طاهر في حزم مشيرة الى رأسه:

- المرض هنا في مخك.. وليس فى صدرك فحسب.. قم صالح أخاك.

- انني خجل منه يا أمي.

- ضع على وجهك برقع حياء.. أو منخل.. جنت لنفسك بالفقر والمرض والخيبة.. سأموت من الحسرة عليك.

وتنهض هي وناصح وفهيمة لمحاولة استرضاء طاهر أفندي، لكنه كان قد نام بعد أن أغلق باب حجرته عليه

بالمفتاح. وينصرف ناصح وفهيمة في حرج وتميل الحاجة أم طاهر على الست سعاد قائلة:

- أيقظيه يا سعاد لا تتركيه ينام غاضبا فان عاقبة النوم بعد الغضب سيئة.. كفاه الله الشر. وتطرق الست سعاد باب حجرتهما قائلة:

- طاهر أفندي.. أنا سعاد أريد أن أنام.. افتح.

ويفتح لها طاهر أفندي وتصحبه هي الى الداخل في رحلة لم تحدث منذ مدة ليست بالقصيرة، والحاجة أم طاهر في الخارج تصلي وتدعو الله لابنيها.

-١٢-

واصل طاهر أفندي اتصاله بمحمود الألفي نصيرا ومؤيدا في الانتخابات، ليس بغرض تعيين أخيه ناصح فى احدى الوظائف ولكن لاعتقاده أنه أصلح المرشحين لتمثيل المركز. وواصل عبد القوي تمام امداد محمود الألفي بالمال لتمويل معركته الانتخابية، ولكنه كان يأخذ عليه شيكات بدون رصيد، خاصة وان المعركة استلزمت الكثير من المال. وكذلك ظل الأستاذ علي البكري صهر طاهر أفندي على اعتقاده بأن الأعيان والأثرياء فقط هم الأقدر على خدمة البلد. لذلك لم يكن يخفي تأييده لكامل الحناوي مرشح كفر الروك، كامل الحناوي كان قد يئس من الحصول على تأييد قوي في السنبلاوين فتقوقع في كفر الروك مكتفيا بأصوات المنتفين من بقية أبناء قرى مركز السنبلاوين الأخرى الذين يترددون عليه في كفر الروك التي يضمن أصوات أهلها كلها، فهم أهله.

وكان يرجع إحجام أهل السنبلاوين عن تأييد كامل الحناوي الأصلح لهم بحكم ثقافته العالية وثرائه الذي يمكن أن ينعكس على الدائرة كلها في صورة مشروعات، إلاّ أنهم يأخذون عليه رشوة المنحرفين من أهل مركز السنبلاوين، واستعانته بالخارجين عن القانون والمطاردين، كما أنهم كانوا متعصبين لمرشح مدينتهم لأنه ابن البلد. وكان محمود الألفي وانصاره يلحون في هتافاتهم على هذا المعنى، وتلت النغمة التي لها صدى عند الآباء وكبار العائلات، ولا يخفى تأثير ذلك على الأبناء، وغاب عن الآباء أنها دائرة واحدة تضم السنبلاوين وكفر الروك والشعلة وغيرها، وان محمود الألفي بقياسهم ليس ابن كفر الروك أو الشعلة وكان رد فعل كامل الحناوي أن تمركز في كفر الروك بعد أن أيقن أن لا اقبال له عند أهل السنبلاوين الذين كان ينصرف زواره منهم مغادرين سرادقه فور الانتهاء من شرب القرفة، ويتركونه قبل أن يكمل خطبته الانتخابية وسط حفنة من أنصاره وكان يغتاظ بسبب الشواهد الدالة على ضعف موقفه الانتخابي في مدينة السنبلاوين حيث تتركز معظم الأصوات. فأوحى الى أنصاره ما دام لا أنصار له فى السنبلاوين تقريبا، فانه لا يجب أن يحصل منافسه محمود الألفي حتى على مجرد صوت واحد من أصوات كفر الروك، وانه لا بد من فرض حصار على هذه

الأصوات، ووسيلته الوحيدة الى ذلك هي منع محمود الألفي من دخول كفر الروك مهما تطلب الأمر.

وبالفعل حين أعلن محمود الألفي عن توجهه الى كفر الروك مواصلا حملته الانتخابية فى عقر دار كامل الحناوي، عز ذلك على أنصار كامل الحناوي فقطعوا الطريق على محمود الألفي قبل مدخل كفر الروك وأنزلوه من سيارته المكشوفة التي كان يستقلها وأنصاره في عدة سيارات خلفه، وألقوا بها في الترعة. هكذا عاد محمود الألفي وأنصاره ليسجلا محضرا بالواقعة في مركز السنبلاوين ولكنها سجلت ضد مجهول. لكن الألفي استطاع أن يحصل على وعد من رجال الأمن بتمكينه من مواصلة حملته الانتخابية داخل كفر الروك وسط حماية أمنية قوية وتأمين الطريق من السنبلاوين الى كفر الروك وبقية الدائره الانتخابية، وبالفعل تم له ذلك مما زاد من تعصب أهل كفر الروك لمرشحهم ولكن توقف الشغف فى الدائرة.

وانتهت الجولة الانتخابية الأولى الى قرار بالاعادة بين محمود الألفي وكامل الحناوي بعد أن خرج بدر الحجازي مرشح الشعلة من الانتخابات، رغم أن تخطيطه كان جيدا بقيد أصوات النساء والفتيات والشباب البالغين في سجل قيد الناخبين في وقت مبكر. كل ذلك كان يمكن أن يؤدي به الى

النجاح لولا ركونه الى الطمأنينة مما جعل نشاطه محدودا فى كفر الروك والسنبلاوين.

ورغم ذلك لم يخرج بدر الحجازي من المعركة الانتخابية تماما وانما راح كامل الحناوي ومحمود الألفي يساومانه على أصوات الشعلة وهو يريد أن يعوض ما أنفق في الجولة المنتهية.. والجميع يعلم انه في مثل هذه البلاد الكلمة لكبيرها.. فهم فقراء جهلاء.. وهم يسمعون الكلمة من كبير بدر الحجازي. وعرض كامل الحناوي الكثير لكنه كان حكيما فلم يمضِ في المساومة بعد أن عرف أن محمود الألفي عرف أكثر بدعم مالي من عبد القوي تمام الذي يسعد بما ينشره عن نفسه من أنه صانع النواب. ورغم ذلك فعبد القوي تمام ليس غرا حتى يدفع الى ما لا نهاية دون أن يقتنص شيئا، فقد انتهى الأمر بأن باع له محمود الألفي عشرة فدادين من أجود الأراضي بسعر بخس وسجلها له على كره، ولكنه كان قد بدأ الشوط واضطر الى التراجع عن اكمال المعركة الانتخابية.

أوحى الأستاذ علي البكري الى ابنته الست سعاد أنه لا يرضى لزوج ابنته بغض النظر عن اختلافه معه حول من يؤيد في الانتخابات.. لا يرضى له أن يركب الى جوار السائق فى

سيارة محمود الألفي الذي يركب فى الخلف مع عبد القوي تمام. وكانت الست سعاد حكيمة الى حد ما، فعتبت على زوجها ذلك الموقف وقالت إن زوجها ليس أقل مكانة من محمود الألفي زوج بنت الطرابيشي.

فرد طاهر أفندي فى هدوء وبرود:

- أنا راض. . كل ما في الأمر أنك تغارين من بنت الطرابيشي لأنها أجمل منك.

وبسرعة بديهة ردت سعاد: سرعان ما انقرض جمالها كما انقرض الطرابيشي وبقي أصلي وأصلها يا طاهر، وصعق طاهر. أول مرة تنطق زوجته اسمه غير متبوع بلقب أفندي وصرخ فيها:

- اخرسي.

وذهلت الست سعاد وقالت:

- أنا أخرس. . اذهب يا محمد نادي جدك. . بسرعة يا محمد.

وذهب محمد الذي كان يقف واخوته كل في ركن مشدوهين. . . ذهب بعد أن سأل أباه:

- هل أذهب يا بابا؟

فقال له: اذهب.

واستقصى الاستاذ علي البكري من محمد حقيقة الأمر قبل

أن يذهب لابنته حتى يعد نفسه للموقف.

وعندما وصل الاستاذ علي البكري الى طاهر أفندي سأل في حكمة بالغة:

- خير يا طاهر أفندي؟

وقصت عليه ابنته الموقف بأمانة كما حدث ورغم ذلك توجه الأستاذ علي البكري الى طاهر أفندي بالسؤال: أهذا ما حدث يا طاهر أفندي؟

وأجاب طاهر أفندي في أسى لما حدث بينه وبين زوجته، فاته أن يسأل عن مصدر علمها:

- هذا صحيح.

وفي حزم قال الأستاذ علي البكري:

- بناتنا لم يألفوا العبودية.

وسأل طاهر: وهل ترى أنها مستعبدة؟

قال علي البكري في حزم: نعم.

رد طاهر أفندي: بسيطة.. سنحررها لأجلك.

وصعق الاستاذ علي البكري فلم ينطق الا بكلمة واحدة مستفهماً:

- ماذا!!

وسقط - حمدًا لله - كان خلفه كرسي فوتيل تلقاه في حنو وارتبك المكان. وهرع كل من في البيت فأحضرت الست

سعاد أم طاهر قطعة من النشادر. وأحضر محمد كوب ماء بينما أحضرت نظلة بصلة. وانشغلت الست سعاد في محاولة التأكد من أن والدها على قيد الحياة.

- بابا.. بابا.. رد علي.. دكتور. دكتور يا ناس.

ورغم شدة الانفعال هرع طاهر أفندي لاحضار الطبيب، فالرجل في بيته ولا بد من اسعافه، لكنه لم يندم على موقفه.

كان علي البكري متصلبا عنيفا في موقفه بل هو أساسه. فقد شحن ابنته ضد زوجها دون أن يقصد، لكنه أيضا تعرض لانفعال قوي. فالطلاق أبغض الحلال عند الله وعند الناس، وبنات البكري الكبير لم يحدث أن عادت واحدة منهن الى بيت أبيها الا للزيارة وها هي احدى بناته وأحبهن اليه يتهددها الطلاق فهل يتقوض البيت؟

حضر الطبيب وقام بتدليك قلب ويدي ورجلي الرجل بعد أن فك أزرار قميصه وخلع جاكتته، لكن الرجل رغم افاقته لم يستطع تحريك ساقه ويده.

ونقل الرجل الى بيته حيث واصل الأطباء ترددهم عليه، وواصل الزوار زياراتهم له الا طاهر أفندي الذي كان يحس أنه جرح ولعلهامكابرة ضاعف من حدتها الاحساس بالذنب. وكان يقول لنفسه إنه رغم ذلك لم يقصر فأحضر الطبيب في بيته، وكذلك سمح لزوجته بالذهاب يوميا لزيارة أبيها،

فدينه يأمره بذلك.

وحز في نفس البكري أن يزوره كل الناس. . أصدقاء وزملاء وجيران وأقارب ولا يزوره زوج ابنته وكان كلما زاره ضيف يقول:

- تصور كل الناس يزورونني الا طاهر أفندي.

ويطيّب الزوار خاطره، وينتهزون فرصة أول لقاء مع طاهر أفندي ليعاتبوه قائلين:

- مهما كان في الأمر هو عمك وجد أولادك.

ويحاول طاهر أفندي شرح موقفه: لكن. . .

فيبادرون بوضع يدهم على فمه: لا تكمل. . العند يورث الكفر.

وتدمع عينا طاهر أفندي فليس بعد الكفر ذنب، وهو لا يريد ان يموت كافرا. فقرر فجأة وهو في طريقه الى بيته أن يستدير الى الخلف ويتجه الى بيت والد زوجته، وطرق الباب وفتحت له الست حماته والجم لسانها فوقفت ذاهلة لا تدري ما تقول من شدة وقع المفاجأة، وقال هو مداعبا محاولا تفادي الحرج:

- كيف حالك يا حماتي؟ . . وكيف حال الاستاذ علي؟ . . ماذا طبخت اليوم؟

وانجلت السحب. وأفاقت الست حماته من ذهولها

لتقول له :

- تفضل . . طاهر أفندي جاء ليطل عليك يا سي علي . . خطوة عزيزة . . تفضل .

ويدخل طاهر أفندي وينحني ليقبل الاستاذ علي البكري ويجهش الاثنان بالبكاء . . ويقول طاهر: سامحني يا أستاذ علي .

ويرد الاستاذ علي محاولا أن يتفادى الانفعال: اسكت . . لا تقل شيئا . . ما دمت قد جئت فقد انتهى الأمر . حمدا لله على السلامة .

ويقول طاهر أفندي: حمدا لله على سلامتك أنت . . كيف حالك الآن؟

- نحمد الله .

- أصبحت تستطيع المشي على رجليك وتحريك يدك؟

- الحمد لله صرت بخير.

- كل شيء سيكون بخير . . شد حيلك .

ويهتف الاستاذ علي البكري : أحضري الغداء يا أم سعاد .

- حالا يكون جاهز.

- لا داعي للغداء .

- كيف . . ان مجيئك عندنا يستحق احتفالا .

- ان شاء الله نعمل حفل يوم تمام شفائك .

- لم لم تحضر سعاد معك؟
- سعاد لا تعرف اني هنا . . كما أنها قاطعتني .
- لا يليق ذلك منها .
- أنا جئت لأني قررت ذلك . . ساقني قلبي .
- ليسلم قلبك وعمرك يا طاهر أفندي .
- الاحشاء داخل البطن تتشاجر .
- الحمد لله . . اننا اخوة قبل أن تكون صهري .
- ليديم الله المعروف .
وجاء صوت الست أم سعاد : الغداء جاهز تفضلوا .
فيشير علي البكري : هيا بنا يا أستاذ طاهر للغداء .
ويأخذ الأستاذ طاهر بيد عمه في حنو ويتوكأ عمه على كتفه ويسيران في اتجاه غرفة المائدة .

يعود طاهر أفندي الى البيت وفي اثره عبده جنايني حديقة علي البكري حاملا صندوقا كبيرا به «صباطة بلح وكومة من الجوافة وعدة عناقيد من عنب الوداع وتشيكلة من الفاكهة» ويضع الجنايني الصندوق الكبير . ويناوله طاهر أفندي البقشيش وينصرف .
وتسأل سعاد : ماهذا؟
- هذه زيارة . . أرسلها والدك لك معي .

وترد في سعادة غامرة: **هل زرت بابا؟**

- نعم يا سعاد. . اننا أهل.

وتتعلق سعاد برقبته العالية وتقبله مثل طفلة تتعلق بأبيها ثم تبكي وتعاتبه قائلة:

- لكن خصامك مرّ يا طاهر أفندي. . وقلبك قاس.

- أنت القاسية يا سعاد. . مقاطعتك لي ما كان يجب أن تكون بهذا الشكل.

- مهما كان الأمر فقد وقع أبي أمامي ومع ذلك قمت بكل واجباتي نحوك رغم الخصام.

- وهل ما بيننا واجبات فقط يا سعاد؟

وتخجل سعاد وتقول وهي تنسحب: لا أعرف. . انت السبب.

ويمسك بها من كتفيها في غزل غليظ: الى أين تعالي هنا. . ويهم بتقبيلها فتبتعد في دلال وخفر قائلة: الاولاد مستيقظون.

- الاولاد. . الاولاد. . متي يهجعون؟

وتهرع سعاد التي امتلأت أكثر من ذي قبل. . وهي تداعبه بكلامها:

- لهذه الدرجة؟

فيجفل طاهر أفندي قليلا ورغم ذلك يتمادى في دعابته

الصريخة وهو يهرع في اثرها الى حجرتهما .

- نعم ، الصبر حرق الدكان .

- دكان من ؟

- دكان العطار.

-١٤-

يوم الانتخابات ظهرت الجنيهات المقصوصة لجذب الناخبين وجاء الموتى ليدلوا بأصواتهم. وكذلك لنفس الغرض أحضر المغتربون والذين على سفر بعيد للادلاء بأصواتهم، ولمنع التشاحن بين المرشحين منع مندوبوهم جميعا من الحضور وكان رئيس كل لجنة انتخاب يؤشر على البطاقة الانتخابية للناخب بالحضور ويصرفه الى حال سبيله بكلمة «مبروك» ربما بدعوى أنهم لا يجيدون القراءة والكتابة. عدد قليل فقط هو الذي أصر على الادلاء بصوته بنفسه مما سبب عدة مشاحنات مع أعضاء اللجان ورؤسائها، من هؤلاء كان طاهر أفندي عندما قالوا له مبروك تفضل مصحوبا بالسلامة، قال في ذهول انني أجيد القراءة والكتابة. . أنا أستاذ. . أنا طاهر أفندي وأصر على الادلاء بصوتي ومن وراء ستار كما ينبغي وبكل حرية ثم مضى خارجا - في اعتداد يقول لنفسه «أنا طاهر أفندي ربيت أجيالا. . وحياتي أخذتها

نضالا . . وما يفعلوه اليوم في اللجان سيعود عليهم وبالا . . »
لم يقطع عليه خواطره سوى مرأى أحد زملائه هو «فتحي النحاس» يحدث نفسه ويسأل الناس «ألست معلما؟ . . ألست أجيد القراءة والكتابة؟ . . ورغم ذلك يمنعونني من الادلاء بصوتي بنفسي . . يضحكون علي بكلمة مبروك . . مبروك علام . . على الخيبة»

ويقول له طاهر أفندي «فعلا خيبة . . والخيبة خيبتك . . لماذا لم تصر على الادلاء بصوتك؟»

رد فتحي النحاس «لم يعطوني الفرصة . . لم يعطونى حتى فرصة مناقشتهم» .

وواساه طاهر أفندي وانصرف في اعتداد الى بيته يزف اليهم نبأ انتصاره في معركة الانتخابات فتساءل أنس : «وهل كنت مرشحا يا بابا؟» فقال لا «ولكن مجرد الادلاء بالصوت تطلب معركة» . فعاد أنس يقول : «معركة مع المتزاحمين»

فابتسم طاهر أفندي وقال منهيا الحديث : لازلت صغيرا يا أنس .

نجح محمود الألفي في معركة الانتخابات وخرج منها بأصوات كثيرة جعلته عضوا في مجلس الأمة وكذلك خرج منها بخسائر فادحة في المال بعد أن باع أرضه واستدان ،

وكالخواجة حين يفلس فتش في دفاتره القديمة . . فوجد أن سكان بيته والدكاكين التي في الطابق الأرضي لم يدفعوا الايجار طوال شهور المعركة الانتخابية ، وتأمل اجمالي المبلغ فوجد أنه مبلغ لا بأس به وقال لنفسه «هو من حقي . . ولا معنى لأن تأكل الناس حقوقي في مقابل انتخابهم لي . فالانتخاب تكليف قبل أن يكون تشريفًا . . وأنا قد أنفقت كثيرا» وفعلا أخذ عدته لذلك فأخطرهم بخطاب على يد محضر بمطالبته لهم بمتأخر الايجار حتى يتفادى الحرج من مفاتحتهم في ذلك شخصيا . وصعق الناس وبادروا بسداد ما عليهم وقالوا له : «هل طالبتنا بايجار وامتنعنا؟ فأجاب «المفروض انكم تعرفون أن موعد الايجار هو أول كل شهر»

وقال أحدهم وهو ينصرف : « كنا نظن أنك ستقدر وقفتنا معك . . لكن لا عليك كل شيء راح لحاله والسلام» وبدأت العملية الازلية . . تصفية الحسابات ثوابا وعقابا كل حسب ما قدمت يداه . . يعسف بموظف وقف ضده في معركة الانتخاب فينقله الى مكان بعيد جدا عن البلد وذلك عن طريق اتصالاته التي كان يستخدمها أيضا في اعادة مؤيد له كان مغتربا عن بلده ويريد الاستقرار فيها .

واختلف الأمر مع طاهر أفندي فهو حين ذهب يهنئ محمود الألفي بالنجاح قرأ الألفي في عينيه ما يريد ، لكنه

تجاهل الأمر. لكن طاهر أفندي كان مرهقا بشدة لكثرة أعباء أسرته وتكملة البناء وعبء أسرة ناصح. فبادر الألفي قائلا:

- أظنني لست بحاجة الى الكلام. . وأنت أدرى بظروفي.

لكن الألفي قاطعه فى برود أجفله: أطلب أي شيء لنفسك.

- أخي ناصح قطعة من نفسي وجزء من مسئولياتي. . وأنا لم أقصر معك.

- لا تحرجني يا طاهر أفندي. . أخوك لم يراع مصلحة نفسه ولا معنى لأن أرعى أنا مصلحته. . قلت لك أطلب أي شيء لنفسك.

قال طاهر أفندي وهو ينهض خارجا في غضب:

- قلت ما عندي والسلام

خرج طاهر أفندي وهو يكاد يعدو من الغضب. . ولم يستطع اكمال الطريق لبيته. . فجلس على أول مقهى صادفه وهو الذي لم يجلس على مقهى في حياته. وتعجب رواد المقهى من معارفه لذلك واستفسروا منه. لكنه كان لا زال يشتعل غضبا فجاء رده على أصدقائه من رواد المقهى بأن سألهم:

- ما آية المنافق؟

قال أحدهم: آية المنافق ثلاث «اذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا اؤتمن خان»

قال لهم: كذلك محمود الألفي. وهب واقفا قبل أن يكمل كوب الشاي.

وعجب الناس لأمر طاهر أفندي الذي وقف مع محمود الألفي من أول المعركة حتى نهايتها وقفة الرجال ثم ينقلب عليه بهذا الشكل المفاجئ والسريع، لكن الأيام أثبتت صدق رأي طاهر أفندي، فقد عمل محمود الألفي منذ نجاحه في الانتخابات على تعويض خسارته، كان يتدخل لتعيين موظفين من أبناء الدائرة مقابل مبالغ كبيرة وهدايا ثمينة وزيارات عينية يأخذها له ممن لهم مطالب عند زيارتهم له في بيته.

أما عن وعوده الانتخابية فقد نسيها تماما واذا سأله أحد في مجلس عن حقيقة أمر من أمور السياسة وأغلق عليه، كان يتذكر موعد فرض لم يؤده أو هكذا يدعي وينظر الى «بوصلة صغيرة» يحملها دائما في جيبه ليعرف اتجاه القبلة وينهض للصلاة ليعود للمجلس الذي كان فيه بعدها فاتحا موضوعا آخر.

أما عن الأمانة فقد تبرع كثير من الأثرياء لبناء مدرسة صنايع في البلد وكان الألفي يتولى وضع المبالغ دون ايصالات

أو حتى كشكول خاص يدون فيه المبالغ أمام أسماء أصحابها. ومضت الأيام دون عمل شيء وراح الكلام يتناثر حول اسم محمود الألفي فكان يكتفي بأن يقول :

- جار عمل دراسة للمشروع . . كل عمل يأخذ وقته .

وسأل رجل سليم النية : والنقود في البنك طبعا؟

فعلق غريم محمود الألفي الذي كان يجلس على نفس لمقهى على مقربة منهم :

- النقود . . انضرب عليها عواف . وانتهى الأمر»

وثار محمود الألفي وهاج وماج ولكن الجالسين خففوا من غضبه، واقنعوا غريمه بترك المكان حتى لا يحدث صدام. وبعد فترة اشترى محمود الألفي عشرة أفدنة في البلد عوضا عن الأرض التي سبق أن باعها أثناء الانتخابات وكذلك أنشأ «كازينو» سياحي على احدى الترع الكبيرة يجلس فيه كبار وأثرياء وشباب البلد من المتعلمين. وراح يعمل على أن يجمع في حاضره ما يؤمن به مستقبله بعد أن اهتزت ثقة الناس به لعدم وفائه بما كان يعد أثناء فترة الانتخابات، ولاختلاسه الأموال التي تبرع بها الناس. وشيئا فشيئا راح البساط ينسحب من تحت قدميه بعد أن بدأت تلمع في الأفق نجوم وشهب جديدة لها من بريق الشباب سحر وجاذبية، وتتمتع بعقلية وصفها العامة «بأنها ألمعية». لكنه دائما كان يحول دون

استمرارها على الطريق تواضع مكانتها المالية والاجتماعية كما هو الحال مع عبد البر الذي لمع دوره في معركة بورسعيد، لكنه لم يدع الى الموائد يوم العيد فهل تعيد مأساة «عنترة» نفسها.

-١٥-

منذ انتهت حرب السويس ومحمد يستذكر دروسه بجد ومثابرة وانتظام يحسد عليه، وكان في ترتيبه لحياته ووقته طابعه النظام الذي ورثه عن والدته، يصحو مبكرا ليراجع النقاط لهامة التي ستكون في موضع نقاش الطلبة والاساتذة في كل يوم دراسي. وعندما يحين موعد الذهاب الى المدرسة يخرج مرتديا البدلة «السولكا» التي اشتراها له أبوه ولا يفوته أن يمر من أمام بيت «فريد بك» ليخطف نظرة من ابنته «أشجان» التي تقف في النافذة ترشف كوب الشاي في مظهر عادي لا يوحي بأنها تنتظره. وكان هذا حالها كل يوم تتريث حتى يمر من أمام بيتها ثم تسارع بالنزول لتلحق به، ويتبادلان كلمات قليلة فيها عاطفة مشبوبة، ولكن طابعها التلميح لا التصريح والتخفي تفرضه البيئة المحافظة ومكانة كلا الوالدين، وكذلك الاحترام الذي صار محمد يحظى به بعد ان اشترك في معركة بور سعيد، الأمر الذي يضفي عليه وقارا هو

أهل له. لكنه يكبل عواطفه ويجعل التعبير عنها بحساب وقدر لا يتجاوزهما، كما يجعل الناس يتسامحون معه ويغضون النظر عندما يرونه بصحبتها ولا ينقلون أخبارهما الى والديهما كما هي عادة أهل السنبلاوين.

وكانت سعاد التي ترامى اليها أخبار العلاقة العاطفية لابنها محمد وأشجان ابنة فريد بك تبارك هذه العلاقة في سرها، فكانت ترى أنه أحسن الاختيار. لم يختر لنفسه فتاة عادية ولكنه اختار ابنة رجل لا يقل مكانة عن أبيه بل يزيد. فقد حصل فريد بك على البكوية بأعمال جليلة في خدمة السنبلاوين. والبكوية وإن تكن الثورة قد انتزعتها منه، الا أن الناس لم يجردوه من اللقب لعلمهم في قرارة أنفسهم أنه يستحق ما هو أحسن. فقد أنشأ في البلد منشآت ومرافق كثيرة وتبرع بسيارة اسعاف وسيارة اطفاء. ورغم ذلك كان قد تقبل قانون الاصلاح الزراعي برضا هو طابعه - أو لعله أمر لم يكن يملك له دفعا - فأقنع نفسه بالرضا. لكنه لم يفعل ما فعل السيد غانم «بعد ذلك حين أخبرته العيون التي بثها في كل الوزارات الهامة بالنسبة له، بقرارات التأميم قبل صدورها. فبادر ببيع أسهمه فى الشركات قبل أيام قليلة من صدور قرار التأميم وكان قدوته في ذلك الخواجه «الدرعي» اليوناني الذي باع المحل الخاص به والذي يحمل اسمه قبل

قليل من تأميمه ووضع النقود في مخزن سري بسيارته وشحنها بصحبته الى اليونان .

كل الصفات الطيبة التي اقترنت بشخصية فريد بك وعلو قدره في البلد وشخصية زوجته الرقيقة السيدة «ناريمان» وما يحيط بهما من عز ورقي وأبهة، حبب للست سعاد التغاضي عن علاقة ابنها محمد بأشجان. لكنها لم تبدِ لابنها في البداية أنها تعرف شيئا حتى لا يتمادى في هذه العلاقة وينشغل عن دروسه التى يجب أن تكون همه الأول وشغله الشاغل، فمستقبله كله رهن بالمجموع الذي يحصل عليه في الثانوية العامة .

والست سعاد حين كانت تسأله: هل ستحصل على مجموع الطب؟ . . أو الهندسة؟

كان محمد يمكر عليها قائلا: ولم الطب أو الهندسة . . ما لها كلية التجارة؟

فكانت الست سعاد ترد منفعلة: هل تريد أن تغضبني وتغضب؟ . . ثم تبتر كلامها وتصمت .

فيقول لها متخابثا: اغضب من؟

فتقول الست سعاد: الناس الذين تضع عينك عليهم لن يرضوا بأقل من مهندس أو طبيب .

فيجيب محمد: اتركي الأمر لله .

فتنصرف الست سعاد في غضب وهي تشحذ همة ابنها قائلة: أنت حر يا محمد.. وأنا قلت لك.

فيقول لها محمد مستدرجا: لم تقولي شيئا.

فتقول السنت سعاد: بالعربي لا أستطيع أن أتكلم وأنت في أقل من الهندسة أو الطب.

فيقول وهو سعيد بانتزاع هذا الاعتراف منها بالعاطفة التي يرتبط بها:

- اطمئني يا ماما وضعي فى بطنك «بطيخة صيفي».

فتقول: لننظر ما ستأتي به النتيجة.

تنصرف الست سعاد فى رضى وشعور غامر بالسعادة لأنها أصبحت أما لشاب من خيرة شباب البلد بل زينتهم جميعا. وهو اذا صدق وتفوق في نتيجته سيكون تاجا على مفرقها. ولا بأس ساعتها أن تخطب له ابنة فريد بك.. وخطر لها أنهم ربما يتعالون عليهم. ولكنها دفعت هذا الخاطر جانبا فزوجها طاهر أفندي مدرس لغة عربية له مكانته وشاعر تنشر له الصحف الاقليمية وأحيانا صحف القاهرة وأحد الشخصيات الهامة في البلد وعنده بيت ملك وعدة أفدنة ليست بالكثيرة حقا.. ولكن حمدا لله أنها لم تكن كثيرة والا أخذتها الحكومة كما أخذت أرض فريد بك الزائدة عن الحد المعلوم الذي فرضه قانون الاصلاح الزراعي، وأضافت الست

سعاد لنفسها أنها لا تقل مكانة عن ناريمان هانم زوجة فريد بك «فهي ابنة ناظر مدرسة تخرجت على يديه أجيال من خيرة شباب المركز كله»، كما أنها حاصلة على ابتدائية الأمريكان، وتذكر عدة كلمات انجليزية تستطيع ترديدها في المواقف المناسبة عندما تجمعها الصدف بناريمان هانم خريجة الليسية وابنة تاجر القطن الذي مات اثر صدمة الأسعار في البورصة.

أما عن جمال الست سعاد فحدث ولا حرج، فهي حين كانت في الرابعة عشرة كان من يراها يحسبها في العشرين.. كانت ناضجة بشكل جعل والدها حين وقعت عيناه ذات صباح عليها وهي خارجة متوجهة الى المدرسة تستبد به المخاوف عليها من الشباب.. كذلك كانت تخشى عليها أمها من الحسد. فالتقت نظراتهما على قرار واحد ترجمه والدها الأستاذ علي البكري فى عبارة واحدة ممهدة:

- سعاد.. أقعدي اليوم لتساعدي ماما.. ماما عندها شغل كثير في البيت.

وعلى مدى النهار مهدت لها أمها حتى أنهت اليها القرار. بكت كثيرا ولكن نفذ القرار، حسم الامر. أدت ذكريات مراهقة سعاد بها الى تأمل نضوج ابنتيها جميلة وفاطمة، وخطر لها أنه لم يكن يجب أن تشجع ابنها محمد على التفكير في

بنت فريد بك أو فكرة الارتباط بها قبل أن تطمئن أولا الى أن احدى ابنتيها في زواج سعيد بأحد أبناء البيوت الكبيرة. . ولكنها قالت لنفسها. . «لا بأس لعل ارتباط محمد بأشجان يفتح أمام ابنتيها أبواب المجتمع الراقي فيكون لهما في الطيب نصيب».

ذات مرة بعد أن نام الأبناء ناقشت سعاد زوجها طاهر أفندي فكرة «هل تمضي الفتاتان في التعليم الى ما لا نهاية أم يفعل بهما ما فعل والدها بها بأختها؟».

وكان رد طاهر أفندي صريحا ومشجعا:

- الزمن اختلف يا سعاد. . التعليم يضفي على البنت جمالا، ان لم تكن ذات جمال ويزيدها جمالا ان كانت ذات جمال. . وهو سلاح مادي لا بأس به قد يؤمنها بوظيفة تكفيها العوز لا قدر الله.

سرت الست سعاد لهذه الاجابة واطمأنت الى أن ابنتيها أسعد منها حظا، ولأول مرة تتمنى لو كان والدها له نفس أفكار طاهر أفندي فقالت له:

- لو كنت أبي. . لكنت الآن دكتورة.

ثم استدركت مداعبه: وانك في مثل سن أبي فعلا يا عجوز.

فقال لها مستنكرا: أنا!

- نعم . . كم سنة بينه وبينك؟

- حوالي عشر سنين . فرق يذكر يا سعاد .

فقالت معابثة : - أنت أبي . . وأخي . . وزوجي . . وحبيبي . . وأبو عيالي . . أبقاك الله لنا كلنا . . ألا يقال إن المتزوجين من طول العشرة يزداد الشبه بينهم من فرط المحبة .

وتعلقت برقبته وقبلته في خده قبلة ساخنة فحملها بكلتا يديه وهرع الى مخدعهما . وكان يتفجر قوة وعجبت سعاد وتساءلت بينها وبين نفسها من أين له بهذه القوة في هذه السن . . وألقاها على الفراش وسألها ضاحكا وهو يفك أزرار ياقة جلبابه : - ماذا تريدين بالضبط ؟

وتردد في المكان صدى ضحكة صاخبة ذات كركرة عذبة .

-١٦-

سمير، ثاني أبناء طاهر أفندي والطالب في الصف الثاني الثانوي، كان يراقب تطور شخصية أخيه محمد ونموها بعد تجربة الجهاد في حرب بور سعيد، وأخذ يحاكيه في الحركة والسكنة، ولكنه كان له طريق خاص. كان سمير يحب فتاة صغيرة لعوبا، كانت تسكن في الطريق المؤدي الى «القطع» حيث السوق وحيث يقام مكان الاحتفال بالعيد، تعرف عليها هناك في القطع حيث كانت تقام الملاهي في العيد والألعاب المختلفة. وكان دائما ما يقابلها في المولد يتسليان بالكلام، فكانت الفتاة تذهب مع اختها الى المولد أو الى مكان الملاهي وتتعمد ان تفك يدها من يد اختها وتتوه في الزحام ثم تلتقي بسمير ويهربان الى الحقول القريبة. وهناك يروي ظمأ شبابه من ثغرها. ثم يعودان ويتفرقان عند مدخل المولد وتلتقي باختها بالصدفة أيضا أو هي تتظاهر بذلك وتسأل مفتعلة البلاهة:

- أنتِ. . أين ذهبت؟

مرة في أحد الموالد حانت من اختها التفاتة الى الوراء ولمحت سمير يمد يده ليقرصها فنهرته قائلة: - ما لك ومال أختي. لِمَ تقرصها؟

- أنا يا بنت!

- نعم أنتَ. . امشِ من هنا.

وتتدخل الفتاة سهير: - عيب يا بنت. . أتعرفين ابن من هذا؟

- ابن من يكون؟

- ابن طاهر أفندي المصري.

وترد الفتاة في غضب: - حتى لو كان ابن الجن الأحمر، لا يصح أن يقرصك.

- لم يقرصني. . ألا تستحين؟

- ألا تستحين أنت. . أم انك غاوية.

- عيب عليك. . هو يحبني.

- أي حب هذا التلاميذي. . يا اختي شوفي لك رجل كسيب ويقدر على خطبتك أم ستنتظرين حتى ينتهي المحروس من تعليمه هنا. . ثم في مصر. أي خيبة. هيا بنا نعود للبيت.

سمع سمير هذا الدرس ووعاه جيدا وعرف أن كل تصرف

له محسوب ليس فقط عليه وانما محسوب على أبيه أيضا، وهو يعرف كم أن أباه حريص على سمعته وسمعة أهل بيته وزوجته وأولاده وبناته كما أدرك من حوار الفتاتين أن الطريق لا يزال أمامه طويلا، وأنه يطول أكثر اذا تلكأ أو انحرف ذات اليمين أو ذات اليسار. كما أدرك أن الفتاة ليست من مستواه وان ما كان يجمعه واياها ليس الا فورة شباب أو نزوة عابرة، وان الفتاة لا ترقى الى مستوى «أشجان» حبيبة أخيه محمد والتي تعتقد أمه الست سعاد أنه لا يليق لها أن تزوج ابنا لها بفتاة أقل مكانة في المجتمع منها، لذا سرعان ما انقلب على نفسه وعلى فتاته حتى يئست من كثرة انتظاره عند مشارف البلدة حيث الحقول أو في زحمة العيد حيث كانا يتوهان في الزحام، وسرعان ما زفت الى شاب يعمل في محل حدادة لكنها طوت نفسها على حسرة لم تفارقها لزمن طويل.

كان سمير يتذكر مشاركته في تدريبات كتائب الحرس الوطني أثناء حرب السويس مشاركة وان تكن صورية، الا أنها كانت تؤكد له أنه لا يجب أن يكون أقل اعتداداً من أخيه محمد بما أسهم به من جهد في المعركة.. ولهذا راح يراعي اللياقة في تصرفاته والاحترام في معاملاته والجد في الدراسة والالتزام حيال الأخرين من حوله.

كان سمير يشعر بزهو كلما مر من طريق القنطرة وحيَّاه

عبد البر أو الشاويش عبد البر بطل كتائب الحرس الوطني بل قائد كتائب السنبلاوين في حرب السويس والذي انتهى به الأمر بعد حل هذه الكتائب بائعا للثلج على القنطرة يبيع صيفا ويجوع شتاء.

وكان كثيرا ما يتذكر بطولاته وأمجاده ويتغنى بها في سعادة لا تخلو من حسرة ترجمتها مواويله مثل:

في الكر أقبلت لم افتكم
فــــريتـــــم وفــتونـــــــي
ورويت عطشكم في عز الحر
بـــدمــــــوع فـــي عيـــــوني

لما قرصني الجوع مين فكر يغديني
فـي عــز الشتا مين راح يغطيني

كان ترتيب جابر السبكي أيضا متقدما فالتحق بكلية الطب. وجابر السبكي هو ذلك الطالب المجتهد في دراسته، السلبي تجاه الحياة العامة التي شارك فيها كل الناس أثناء حرب السويس، بينما انصرف هو الى المذاكرة. فكان يضيء المصباح الكهربائي بالليل رغم النداءات أثناء الغاره «اطفئوا النور» التي كان يستجيب لها الجميع، بينما يسمع التوبيخ بأذنيه ولا حياة لمن تنادي. يبتلع الاهانة تلو الاهانة ما دام ذلك في مصلحته، وهذه صفة مشتركة جمعت بينه وبين محمود ناصح لذلك لم يكن غريبا أن يستأجرا سكنا مشتركا في القاهرة.

أما محمد طاهر فقد سكن المدينة الجامعية واستمرت علاقته بأشجان التي التحقت بالجامعة الأميركية في القاهرة لأنها لم تحصل على مجموع كافي لتلتحق بالجامعة المصرية. كما أن الجامعة الأميركية بالنسبة لها مجمع أبناء الطبقة الراقية التي تندرج ضمنها أسرتها. وكان محمد طاهر يتردد عليها في بيت الزمالك الذي تسكنه مع أخيها، وعلى الجامعة الأميركية للقائها. وكانا دائما يجتمعان اما في ملعب التنس حيث تتألق في زي التنس أو في حمام السباحة فيمتع عينيه بمفاتنها ثم يخرجان بعد ذلك الى أحد المحال العامة لتناول شيء ومعهما صديقاتها وأصدقاؤها. كل فتاة تتأبط ذراع فتاها، وكانت

أشجان تجد فتاها الريفي العملاق فتى مناسبا لها تتباهى أمام صديقاتها بتفوقه وبطولته في حرب بور سعيد، كما أنها كانت تراه أكثر تحضرا وتحررا من أبناء السنبلاوين وكانت تغضب حين تصفه بعض صديقاتها بانه فلاح وتقول ان اباه مدرس ومن ذوي الأملاك ولا يعيبه أنه لا يجيد الرقص. . غدا يتعلمه ويتقنه.

كان محمد طاهر قد رقص ذات مرة معها، وباء بفشل ذريع بعد أن صرخت أشجان لأنه ضغط على قدميها بقدميه. من يومها ينتابه حرج شديد كلما دُعي للرقص من أشجان أو احدى صديقاتها. لكن أشجان تعهدته بالتدريب والمران حتى صار راقصا ماهرا لا يباريه آخر. فصار فارس «حلبة الرقص» في كل حفل يحضره لا يكاد الصديقات والأصدقاء يدركون من مظهره أو مسلكه أنه فلاح من السنبلاوين، لكن لهجته كانت تكشفه حين ينطق بلفظة مثل «أني» بدلا من «أنا»، وتداعبه بعض الفتيات بأن ينادينه قائلين «يا أني» بدلا من «يا محمد» ويضج الحاضرون بالضحك.

مرة رآه محمود ناصح ابن عمه بصحبة أشجان في أحد الأماكن وتظاهر بأنه لم يره لكنه زاره في نفس الليلة في المدينة الجامعية وبادره قائلا:

- لأ! حلـوة. . حظك من السماء. . بنت فـريـد بك. . من مثلك. . .مـال وجمال وحسـب ونسـب. وشجعـه على التمادي في هذه العلاقة لحقد دفين في نفسه تجاه محمد طـاهـر لأنه تفوق عليه ولأن ظروفه ميسرة عن ظروفه التي ساءت منذ ضاعت تجارة أبيه ناصح. لـذا كـان محمـود نـاصح يشجعـه حتى يمضي في غيّه وانصرافـه عن الـدرس والتحصيل بـل وعدم حضور المحاضرات. وكان يكتم هذه الأخبارعن عمـه طاهر خشية أن يغضب ابن عمه منه، وكذلك حتى لا يـردع عمـه ابنـه عن المضي في غيّه ويـرده الى التحصيـل والعلـم والاجتهـاد والمثـابـرة. واستمـر الحال كما هـو الى أن انتهت الدراسة وعـادا الى البلـد وراح محمـود يقص على امـه فهيمـة حكايات محمد طاهر وأشجان ابنة فريد بك ويصور لها أموراً لا وجود لها ويوحي لها بتسريب هذه الأخبار الى عمه طـاهـر عن طريق اناس آخرين من الطلاب أبناء السنبلاوين. وكان طاهر أفندي لا يصدق ذلك هو والست سعاد. فابنهما كـان دائما مثالاً للجـد والاجتهـاد والتهـذيب والأخـلاق ويقـولان لنفسهما أن طـلاب البلـد يغـارون منـه لأنهم لم يتمكنـوا من الالتحاق بكلية عـاليـة مثلـه، لكن الأيـام جـاءت على غير هواهم.

ذات يوم كان محمد ومحمود يجلسـان أمـام دكـان «خميس»

البقال يلعبان «النرد» حين أعطى ساعي البريد رسالة للباشمهندس محمد كما صار يناديه الناس وقال:

- رسالة من القاهرة.

فضَّها محمد على عجل وحاول محمود ابن عمه أن يقرأ بجانب عينه ما فيها حتى يعرف شيئا عن مضمونها. ونجح في ذلك فقد جاء في الرسالة أنه رسب في اعدادي الهندسة، وصدم محمد ووضع الرسالة في جيبه وانصرف مسرعا تجاه بيتهم. لكن محمود لاحقه في مزيد من الفضول والشماتة قائلا:

- ما بك يا محمد.. ظهرت النتيجة؟

ويرد محمد: - من فضلك دعني لحالي.

وانصرف الاثنان كل في اتجاه بيته، دخل محمود ناصح على أمه متهللا:

- ألم أقل لك؟.. مثل هذا الشخص لا ينفع.. فصل من الكلية.. خمس مواد «ض. ج» وترد هي في رغبة عارمة في التشفي من الست سعاد: - حقا يا ولد.. أصحيح هذا؟

واستبد بمحمد طاهر الغضب فقطع الرسالة قطعا صغيرة وألقى بها من الشرفة، لكنه صارح امه أنه رسب واعتذر لها قبل مجيء أبيه حتى تخفف عنه بالتمهيد اللازم. وانزوت الست سعاد في ركن حزينة تبكي حظها وحظ ابنها، لكن

لطمة أخرى سرعان ما جاءتها: ترن فهيمة جرس الباب بنغمة تشبه «الزغرودة» رغم أن الباب كان مواريا، ودخلت تقول:

- أنا لا أعرف كيف أزغرد؟ قلت فليزغرد الجرس.

وترد الست سعاد في غضب ظاهر:

- علام يا فهيمة؟

- على نجاح بسلامته الباشمهندس.. ألم ينجح؟

- لا.. وأنت تعرفين ذلك ألم يقل لك ابنك.. جئت لتشمتي فينا يا فهيمة بعد كل ما فعلناه معكم.

- لا والله يا اختي.. انا ظننته نجح.. لا عليك.. ليعوض الله عليك.. أليس له دور ثان.. ملحق؟

- لا.. ليس له ملحق يا فهيمة.

ويدخل طاهر أفندي وعلى وجهه علامة استفهام حول الموقف، وتحاول الست سعاد أن تخفف وقع المفاجأة على زوجها الذي بادرها: - خير يا سعاد؟

- لا عليك يا طاهر أفندي سنةمن سنة قريبة.. محمد لم يوفق هذه السنة.. جاءه خطاب اليوم.

وتعلق فهيمة في تساؤل شامت: - المهم ألا يكون قد فصل.

وتصرخ الست سعاد: - فأل الله ولا فألك.

ويسأل طاهر أفندي :

- أين الخطاب؟

وترد الست سعاد : - لقد قطعه من فرط غضبه - يا حبة عيني - والقاه من الشرفة .

وسارع طاهر أفندي بالخروج الى الشارع قائلا : - سأجمعه ورقة ورقة . . لا بد فيه شيء خطير.

ويجمع طاهر أفندي قطع ورق الخطاب المتناثرة تحت الشرفة ويحاول لصقها من جديد بحيث تترابط الكلمات ويعمل عينيه وذهنه في ذلك، ثم يحاول ان يقرأه وينجح في الوصول الى المعنى العام الذي يؤكد له أن ما كان يرده من أخبار على مدى العام لم يخل من أشياء صادقة. ويستبد الغضب بطاهر أفندي، ويرتفع ضغطه، ويمسك برأسه، ويقول في حسرة:

- ابني الكبير. . خاب أملي فيه. . وأنا كنت اظنه هو الذي سيرفع رأسي عاليا وسط أهل البلد . . رقص وتنس وحمام سباحة يا باشمهندس . . ما لنا نحن وهذه الأشياء. . البس ثوبا يناسبك . . غدا تذهب لترى نتيجتك بنفسك وترجع في نفس اليوم . . وان كنت قد فصلت لا ترجع . هذا أحسن من أن ترجع بالخيبة . . ماذا تقول لي اذا رجعت بخبر الشؤم؟

ويرد محمد: يا بابا أنا متأكد أنه ليس في تقديراتي «ض.ج». . ان مرسل الخطاب قلبه أسود ويكرهني. . لقد أرسل النتيجة دون أن أطلب ذلك منه. . يريد تحطيم نفسيتي.

ويرد طاهر أفندي: - يا لبرودك. . ألم تتحطم نفسيتك بعد!

- غدا ترى يا أبي ساكون عند حسن ظنك.

- من أين يأتيني حسن الظن بعد ما كان؟

وتخفف الست سعاد قائلة: - كل شيء غدا يبين يا طاهر أفندي. . فقط لا تغضب. . خذ دواء الضغط واهدأ بالله.

-١٨-

وكان طاهر أفندي بعد حرب السويس والانفعالات التي صاحبتها قد مرض بضغط الدم ولم يشعر به الا بعد أن أصيب باغماء لأول مرة في حياته أثناء عمله بالمدرسة. وأسعفه زملاؤه وصاحبوه في طريق العودة الى بيته وجلسوا معه قليلا ثم انصرفوا، وبالليل عاده الطبيب وبعد الكشف عليه قال له على مسمع من زوجته وأولاده:

- شيء بسيط.. الضغط مرتفع قليلا.. وبالمحافظة في الأكل والاقلال من الاجهاد يكون كل شيء على ما يرام والشاي ممنوع.. والأكل بدون ملح.. ولا داعي للانفعالات.. والدواء بانتظام. وسلم الطبيب وانصرف، ووجم الأولاد وبكت الست أم طاهر وقالت:

- كان بدري عليك يا ابني.. يا ربي ان ابني لا زال صغيرا.. استغفر الله العظيم.. وأمنت الست سعاد:

- نعم استغفري يا حاجة.. كل الناس عندها

الضغط . . **أنت نفسك عندك الضغط وعشت به من ٣٠** سنة المهم أن نحافظ في أكلنا ونتجنب الانفعالات مثلما قال الطبيب .

وربتت الست سعاد على كتف زوجها وقالت :

- ان شاء الله تعيش وتشوف أولاد أولادك يا طاهر أفندي .

وبالفعل التزم طاهر أفندي بتعليمات الطبيب التزاما دقيقا. فالأكل مسلوق وبلا ملح والشاي أضرب عنه وصار يرفضه بشده من كل من يقدمه له، وكأنه يقدم له السم الزعاف. فطاهر أفندي رغم ايمانه الشديد بالله - وتوكله عليه - يؤمن بالأخذ بالأسباب، ومنها العلم الحديث من طب وخلافه، وكان عندما يقول له أي فرد : - اشرب الشاي وتوكل على الله. يقول له : - التوكل غير التواكل. لكنه كان يحرج أحيانا اذا ما قدم له كوب شاي من مضيف أن يطلب شيئا آخر حتى لا يكلفه. أحيانا أخرى كان يطلب الشاي بنفسه، أما الملح فكان لا يدخله طعامه الا اذا كان ضيفا على مائدة أحد المعلمين أو الأصدقاء، لكنه كان ملتزما تجاه تعليمات الطبيب في بيته وكانت زوجته خير مشجع له في ذلك .

منذ مجيء رسوب محمد طاهر في اعدادي الهندسة ازداد

الضغط على أبيه . . وبادر محمد باستدعاء الطبيب وشرح للطبيب في الطريق سبب ازدياد المرض على أبيه . وطمأنهم الطبيب وزاد من جرعة الدواء ولزم محمد جانب سرير أبيه طوال الليل ، ومع انبلاج الصبح استأذن في السفر الى القاهرة مع وعد بالعودة في نفس اليوم بما يطمئنه ان شاء الله .

وبالفعل عاد محمد آخر النهار وحمل لأبيه صادق الأخبار وهي انه راسب في ثلاث مواد فقط اثنين وواحدة «ض . ج» ، ووعده أن يعود الى سابق عهده به مجدا مجتهدا وقبل يده في حب أراح قلبه وجعله يخلد الى النوم - وهو يحلم أن يمد الله في عمره - حتى يتم رسالته في تربية أولاده .

ومن يومها والست سعاد توصي ابنها محمد في ذهابها ومجيئها أن يعود كما كان طوال عمره مجتهداً وتقول له : - والدك لن يتحمل ضربة ثانية . . وأنت أول أولاده وان شاء الله تكون أول فرحته . وأنت المثل لاخوتك كلهم . . أنت الكبير العاقل .

والحقيقة ان محمد كان عند حسن ظنهم فقطع كل صلة له بأسرة فريد بك وابنته أشجان وأخيها الذي تسكن معه في الزمالك بالقاهرة بعد أن بدأ العام الدراسي الجديد .

وذات مرة التقى طاهر أفندي في احدى حفلات الزواج بالبلد بفريد بك الذي كان شديد التمدن والذي قال لطاهر

أفندي :

- **محمد ابنك لم يعد يزور اخوته لا هنا ولا في مصر.**

وهنا رد طاهر أفندي في سعادة لم يحاول أن يخفيها بعد أن تحقق من صدق ابنه فيما وعد به :

- أنا قلت له اقتصر وكن في حالك . . الاقتصار أحسن .

وعلت حمرة الخجل وجه فريد بك ومر بيده على جبهته يمسح عرقا باردا ويداري حرجا شديدا أصابه من جراء رد طاهر أفندي. وقال وهو ينهض محاولا أن يكبت انفعالا غاضبا :

- فعلا الاقتصار أحسن . . سلام لأن ورائي أشغالاً كثيرة. . العقبى لأولادكم .

ورجع طاهر أفندي بعد انتهاء الفرح وهو يحث الخطى وعند دخوله باب البيت بادر زوجته قائلا :

- جعلت قفاه يشوي ذره .

- من هذا؟

وحكى لها الحكاية وكيف أن سعادته لا حد لها لأن ابنه قد وفى بما وعد، وعلى الفور خلع طاهر أفندي ملابسه وتوضأ وصلى ركعتي شكرلله بعد أن عاد ولده الى جادة الطريق .

-١٩-

سمير طاهر صار في الصف الثاني الثانوي، وبدأت اهتماماته الأدبية تظهر والشعرية منها خاصة وصارت القضايا العامة وقضايا الناس تشغله بشكل كبير، والأحداث الوطنية تستأثر بلبه وقلبه أكثر من ذي قبل. وكانت الانتصارات العربية تشغل وجدانه فيتقافز قلبه فرحا ويكتب القصائد كما حدث في يوم الوحدة. لكن قمة الانفعال كانت يوم ثورة «عبد الوهاب الشواف» و «ناظم الطبقجي» في العراق، يومها أعلن تأييده وزملاؤه لها في اذاعة المدرسة، واستدعاه الناظر وقال له:

- كيف تؤيد هذه الثورة وهي التي لم يتضح انتصارها بعد من عدمه؟

ويرد سمير: - يا حضرة الناظر تأييدنا لهذه الثورة يشد أزرها.

لكن الناظر يقول: - الدولة لم تلعن تأييدها رسميا بعد.

- ومع ذلك واضح من الصحف أن هناك تأييدا من المفكرين والكتاب.

- المدرسة جهة رسمية.. ونحن نتبع الرسميات.

- وأنا لست موظفا رسميا. أنا طالب وأمثل الطلاب وهم شعب المستقبل.

- علق ميكروفونا على باب بيتك وقل ما شئت ولكنك لست حرا في استخدام ميكروفون المدرسة. وانصرف سمير غاضبا من مكتب الناظر لكنه حاول أن يلتمس له العذر أمام زملائه فقال لهم:

- هو موظف ومسئول أولا وأخيرا عن كل ما يدور في المدرسة. ولكن هل نتحكم في مجلة المدرسة ومجلات الحائط كما يتحكم في الميكرفون؟

قال له واحد: - ان الميكرفون يدوي في كل ارجاء المدينة ويسمعه حتى من يريد أن يسمع فتأثيره واسع المدى ولكن المجلة يقرأها من يراها.. والقراءة صارت عادة منقرضة كالديناصور.

وراح سمير يتساءل بينه وبين نفسه هل يصبح يوما ما موظفا مستعبدا للوائح والقوانين؟، وابعد الفكرة وقال إنه سيكون شاعرا حرا يغرد على كل غصن، ويقول ويكتب كل ما يَعُنّ له من أفكار وأنه سينشد أشعاره في كل المحافل

والندوات الأدبية وأنه «سيسمع بكلماته حتى من به صمم».

وكان متأثرًا بشخصية «المتنبي» وغيره من الشعراء العظام. فكان يقوم بعمل أبحاث في التراجم الخاصة بهؤلاء الشعراء ويقدمها للأستاذ «سطوحي» أستاذ اللغة العربية الذي كان يسعد باجتهاد سمير ويشيد باجتهاده وتميزه كلما التقى بأبيه طاهر أفندي ويبشره بأن سمير ينتظره مستقبل باهر في مجال الشعر والأدب. ويفرح طاهر أفندي «فرحة طفل . . . فرحة عارمة (وكلنا يعرف كم يفرح الآباء حين يكرر الأبناء سيرتهم). ففي مثل عمر سمير بدأ طاهر افندي اهتماماته الشعرية بغزلية لا زال يردد في ذهنه مطلعها حتى الآن، ويقول في نفسه ما اسرع مرور الأيام، وما اجملها حين تتسلل في ترابط وانسجام، فهل تدوم السعادة أم تأتي الأيام بما يكدر صفو الحياة . . فانه حتى اذا ذهب الموت بحبة هي عين من عيون الحياة، فان من شأن الله أن يأتي بحبات جديدة تزين جيد الحياة الجميلة . . الجميلة دائما.

صارت الأمور كلها بعد ذلك على ما يرام مع طاهر أفندي وزوجته وأبنائه، فهو لم يختلف مع زوجته منذ الخلاف الأول سوى مرة واحدة طلبت منه على اثرها أن يوصلها الى بيت أبيها. والحقيقة أنه صحبها ليلتها على مضض وظل طوال الطريق يقول لها:

- لم نعد بعد صغاراً يا سعاد. . أولادنا وبناتنا كبروا وكلها سنوات ويصيرون أزواجا وزوجات. لكنها لم ترد عليه، وفعلا وصلا الى بيت أبيها الأستاذ علي البكري في وقت متأخر غير مناسب للزيارة، فبدت زيارتهما غريبة، ويسأل والدها:

- خيرا يا جماعة. .؟

وانتابهما حرج لكن الست سعاد أجابت على غير ما توقع طاهر أفندي:

- أبدا يا بابا. . صار لنا مدة لم نراكم قلنا نجيء نطل عليكم.

فرد في سرور وارتياب: - يا أهلا وسهلا.

وسر طاهر أفندي وتجاذب أطراف الحديث مع صهره فترة وجيزة ثم استأذنا في الانصراف.

وضحكا ضحكة قصيرة هو والست سعاد فور خروجهما وقال:

- وقعتي قلبي ما كان داع لذلك. . كبرنا على مثل هذه الأشياء يا سعاد.

وردت هي: - انت وحدك الذي كبرت. . أنا لا زلت بخيري. . لماذا تكبرني معك؟

- خزاك الله خيرا يا سعاد. . مدّي الخطى فالعيال ربما ناموا بدون عشاء.

- من المؤكد ان نظلة جهزت لهم العشاء.

- ٢٠ -

محمد صار منتظما في دراسته ينجح كل عام بتفوق، وكذلك سمير الذي التحق بكلية الآداب وسكن المدينة الجامعية أيضا وأنس الصغير صار في الصف الأول من المرحلة الثانوية والبنتان جميلة وفاطمة في الثانوية العامة، كما صارتا محط آمال شباب البلد من الجامعيين رغم أنهما بعيدتان عن الاختلاط وليس سوى صديقتين هما «وركشان» ابنة احدى العائلات التركيه المتمصرة و«نورا» ابنة مأمور البلد وكلاهما من المتفوقات مثلهما. وكانت صداقتهما لا تتعدى تبادل الزيارات في بيوتهم أو الذهاب للنزهة في حديقة البلدية الجديدة المحدد لها رسم دخول، مما جعل جوها عائليا محترما يضمن لهن السلامة من معاكسات المتسكعين من الشباب في الطرقات. ورغم ذلك لم يكن يسلمن من نظرات متلصصة تتسلق صدورهن الشابة ووجوههن الجميلة وشعرهن المنسدل وراء ظهورهن، ثم تنحدر النظرات في جرأة وقحة مارة

بخصريهن والأرداف الصغيرة المختبئة تحت فستان وجيبون واسع جعلهن كأنهن عرائس المولد. لكن الشيء الطيب أن هؤلاء الشباب لم يكونوا ليجرؤوا على مغازلتهن أو ابداء تعليقات عليهن شأنهم مع الفتيات الأخريات، ربما اعترافا منهم بفضل طاهر أفندي أستاذهم وربما خوفا من وجود بنت المأمور بينهن، وربما أن جمالهن البريء هو الذي كان يسبي عقول الشباب ويجعلهم يتأملون صنعة الخالق فيسبحون بحمده عن عزمهم على معاكستهن وقد غلبتهم طبيعتهم الريفية الطيبة.

وكانت الفتيات جميعهن من المتفوقات في الدراسة، فهن جميعا من أسر يعرفون للتعليم أهميته بنفس القدر الذي يعلقون به اهمية على المبادىء والأخلاق والتقاليد. . ويرونها كلها مكملة لبعضها البعض، بل انهم أصبحوا لا يرون في التعليم مجرد حلية تقتنى للزينة بل يرون فيه ضرورة بل سلاحًا يحمي الفتاة في مواجهة صروف الزمان، وتأمينا لمستقبلهن كالأولاد تماما. لذا كان الأهل يحفزون بناتهم على التفوق الدراسي بنفس القدر الذي يحثونهم به على الفضيلة. بل كن لا يوافقن على مصادقتهن لفتاة أقل منهن تفوقا، لذا كن جميعا مشاعل نشاط وجد واجتهاد لا يقف عند حد الدراسة بل يمتد الى المطبخ في مساعدة أمهاتهن، والى التطريز

وأشغال الابرة والكنافا، والايتامين في فترة الاجازة الصيفية.

ولم تكن عائلاتهن تلتقي بل كانت الأمهات خاصة يبعثن بالسلامات لبعضهن، كل واحدة مع ابنتها وكانت السلامات تصل وتقابل بالود والحب من كل الأطراف، كما تطلب كل أم من ابنتها أن تصف لها جمال أم صديقاتها وتصف البيت الذي يسكنونه ومفروشاته وتسألها عن عدد أبنائها وبناتها، لكنهن جميعا اشتركن في شيء واحد أنهن كن يتجنبن السؤال عن الأب مكتفين بمعرفة وظيفته.

كانت الفتاتان جميلة وفاطمة قد بدأتا تخلعان لقب «أبيه» على أخيهم محمد منذ تطوعه في حرب السويس، وبادرتا بخلع اللقب نفسه على سمير فور التحاقه بالجامعة، فإن ابتعاد أخ لهما عنهما كان يسبب لهما شعورا بالوحشة فتبادران دون وعي منهما الى تأكيد الإعزاز بلقب «أبيه». وقد أسعد هذا اللقب أخاهم سميرا جدا فأحس بأنه ند لأخيه محمد الذي حباه الله بصفات كثيرة طيبة علمية وخلقية وشخصية.

في بداية التحاق سمير بالكلية كان لا يقدر على الابتعاد كثيرا عن الأسرة، فكان يذهب الى السنبلاوين أسبوعيا لزيارة أهله على عكس أخيه محمد الذي كان يعكف على كتبه حتى يومي الخميس والجمعة.

وكان يذهب الى دار السينما في مساء يوم الجمعة حيث كان

مولعا بأفلام الخيال العلمي الأجنبية. وكانت سينما «النصر» تعرض فيلمين في العرض الواحد وأحيانا ثلاثة نظير مبلغ زهيد لا يتعدى السبعة قروش في البلكون. وبدأ محمد يغري سمير بقضاء الخميس والجمعة معه في القاهرة للنزهة والفرجة على معالمها، وقال له إن القاهرة ليست الجامعة فقط بل فيها المساجد والقباب الأثرية والمتاحف والأهرامات وأبو الهول ودار الأوبرا والمسارح الغير متوفرة في السنبلاوين، والملاهي والحدائق العامة الكثيرة.

بالفعل صاحبه سمير الى دار الآثار المصرية ومتحف الأحياء المائية وحديقة الأسماك والأهرامات وأبي الهول، وكل تلك الأشياء الأماكن الوحيدة التي لم يكن محمد يرتادها هي الملاهي ربما لانه محافظ مثل ابيه وربما لان مصروفه الشهري محدود، لكن سمير بعد أن عرف القاهرة أعاد هذه الجولات مرة أخرى وبدأ جولات جديدة في المسارح ودار الاوبرا التي استهوته ومعهد الموسيقى العربية. فأضاف الى اهتماماته الشعرية اهتمامات جديدة مثل المسرح الذي كان ضمن دراسته في الكلية. أما الموسيقى فقد ارتبطت في ذهنه بنزعة للغناء قديمة عنده، لكنها مختبئة في نفسه، فلم يحدث أن صرح برغبته في أن يكون مغنيًا. فقط كان يتغنى بينه وبين نفسه على طريق المعاهدة في السنبلاوين وسط تشجيع أقرانه

من الطلاب وكانت أول أغنية تغنى بها هي «يا حلوناديلي» و «ع الدوار » وغيرها من أغاني جيله . . جيل الثورة. كل ما كان في ذهن سمير حتى جاء الى القاهرة انه يريد أن يكون شاعرا أو أديبًا بوجه عام، لكن رغبته في الغناء ظهرت عندما هزت وجدانه أغنية صادرة من صالة البروفات بمعهد الموسيقى العربية بشارع «رمسيس». فوقف مشدوها ثم انحرف يمينا تجاه مصدر الصوت وظل يتسلل خطوة خطوة الى الداخل رغم أن أحدا لم يكن واقفا بالباب ليمنعه. وفي حديقة معهد الموسيقى رأى كبار الموسيقيين الذين لم يكن قد رآهم من قبل سوى على صفحات الصحف والمجلات، كان كل يجلس وحوله من المعجبين والتلاميذ عدد يكفي لشحذ رغبته في الاستحواذ على الاعجاب . كان الواحد منهم يدندن بلحن جديد أو يتغنى بلحن من ألحانه الشائعة والجميع من حوله يهز رأسه طربا واستحسانا، شجعه ذلك على الانخراط في احدى هذه المجموعات دون دعوة من أحد فتقدم وعلى شفتيه ابتسامة ريفية خجولة نحو المجموعة التي تجلس حول الملحن «عزيز فتحي» وقال : - أرغب في الغناء.

ورد عزيز ببساطة : - غننا.

وغنى سمير «ع الحلوة والمرة مش كنا متعاهدين».

وقال له عزيز: - صوتك لا بأس به. . لكنه بحاجة الى

صقل وتدريب . . **بعدها يصح أن يكون لك** أغاني خاصة بك .

ورد سمير على الفور: - أنا أقرض الشعر.

وابتسم عزيز في اشفاق وقال : - اسمعنا .

وألقى عليه سمير قصيدة من محاولاته .

وعلق عزيز قائلا: - هي موزونة . . لكن الكلام لا جديد فيه .

ثم ابتسم في خبث وقال: - أخشى أن تكون ملحنا أيضا .

ورد سمير في سذاجة: - لا . . التلحين لا أعلم عنه شيئا . . ولكنني أهوى التمثيل أيضا .

وقال عزيز في تساهل يوحي بالسخرية : - مثل .

وقام سمير ومثل منولوج هاملت الشهير، وكان القاؤه جيدا . . ولكنه لا يرقى الى درجة ممثل .

وهنا حسم عزيز بطريقة بسيطة وفي حنو يناسب شباب سمير الغض- فقال :

- شوف يا . . . . ما اسمك؟

- سمير.

- شوف يا سمير . . ركز . . شوف ماذا تريد أن تكون بالضبط . . اسأل نفسك من الداخل . . ماذا تريد أن تصير

شاعرا؟ أم مغنيا؟ أم ممثلا؟ . . ركز وليأخذ الله بيدك . . أنت صغير وواعد. حسنا انك قابلت واحدا مثلي يعرف الحيرة التي يكون فيها الشباب في مثل سنك . . وفي نفس الوقت انتبه لدراستك فلا تجعل الهواية تطغى عليها وتؤثر على دراستك . . الدنيا لا أمان لها خاصة دنيا الفن هذه .

وشكره سمير وانصرف وهو يتذكر كلام أبيه له بأن يركز فيما يفعل وألا يبدأ عملاً قبل أن ينهي العمل الذي بدأه قبلاً . . وقوله «صلى الله عليه وسلم»: ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» .

وراح يتساءل وهو في طريق عودته الى المدينة الجامعية : شاعرًا أم مغنيًا أم ممثلاً؟ لا شاعر ولا مغني .

وعندما وصل الى المدينة الجامعية وألقى نفسه من التعب بملابسه على السرير، استبد به القلق وألحت عليه الاختيارات ، حتى أنه نام بملابسه وحذائه حتى الصباح ، واستيقظ وهو يقول لنفسه إن زيارته لمعهد الموسيقى العربية لها ما بعدها ، وان هذا العالم ما دام قد انفتح له فلن يسمح لأحد أن يخرجه منه ، قال ذلك لنفسه ومضى في عزم وتصميم تجاه المطعم حاملا كتبه الجامعية في يده وهو يردد بينه وبين نفسه لحن «صافيني مرة» .

-٢١-

بدأت أضواء القاهرة تشغل سمير عن الزيارات المنتظمة أسبوعيا للسنبلاوين، فقد بدأ الفن يتمكن منه ويملك عليه نفسه. ولم يعد يمر أسبوع دون أن يكتب قصيدة أو أغنية جديدة يعرضها على كبار الأدباء وعلى صديقه الذي اختضنه الفنان الموسيقار عزيز فتحي. وصار يوجه له النصح فيما يتعلق بالفكرة الجديدة والكلمة النابضة بالحياة. ولم يكن مصير قصائده التي لم تكن تحظى باعجاب عزيز فتحي ورضاه عنها ليلحنها- لم يكن مصيرها الاهمال وانما كان يلقيها في الندوات ويحظى بقدر من الاعجاب لا بأس به يأخذ منه ذخيرة تشجعه على الاستمرار، ومن المعجبات معينا لا ينضب لقصائد جديدة. وصار بعد فترة يكثر من التردد على دور الصحف والمجلات يعرض قصائده ويحظى في البداية بقليل من الاعجاب وكثير من التشجيع الى أن نشرت له صحيفة «المساء» قصيدة في صفحتها الأدبية.

يومها حدث منه ومن أبيه شيء مشترك اشترى كل منهما أعدادًا وزعها على من يهمه رأيهم. كان ذلك دون أن يعلم كل منهما بما فعل الآخر: فهو في القاهرة ووالده في السنبلاوين، هو سعيد بنجاحه ووالده سعيد بأن يكرر ابنه سيرته، فوالده فعلا كان يبتسم حين يسمع من أصدقائه قولهم «هذا الشبل من ذاك الأسد»، لكنه كان لا يخفي قلقه على ابنه من الفن وأضواء المدينة.. القاهرة فلطالما ضيعت الأضواء شبابا كثيرين. وحدث طاهر أفندي زوجته الست سعاد بخوفه على سمير وقلقه بشأن مستقبله.. لكنها طمأنته قائلة:

- أولادنا عاقلين.. وسمير لا زال في دور الهواية.

- الهواية قد تؤدي الى الاحتراف.. واذا جرت النقود في يده.. أنت تعرفين ما قال شوقي بك «ان الشباب والفراغ والجدا مفسدة للمرء أي مفسدة».

ويستدعي طاهر أفندي ابنه سمير بخطاب عاجل ويحدثه بمخاوفه أن تشغله الهواية عن دراسته. لكن سمير يطمئنه ويقدم له الدليل: نتيجته في الفصل الدراسي الأول «جيد». ويستريح الأب قليلا لهذا الدليل انما بقي شيء في قلبه يجعله غير مطمئن تماما.

فيختم كلامه قائلاً: - أنا قلت لك ما في نفسي يا بني

وليخلف الله ظني ويجعل نصيبك التوفيق في دراستك والنجاح في هوايتك.

ولا يفوت سمير أن يمر في زيارات سريعة على أصدقائه المقيمين في البلد. ولم تكن هذه الزيارات خالصة من الغرض وانما كان يريد أن يعرض صدى نشر قصائده في الصحف، وكان يتيه برؤية الاعجاب في عيون اصدقائه وكم أسعدته عبارة ساذج منهم يمدحه:

- لا.. انك اجتزت الموانع.. وصلت.

فأجاب في تواضع مفتعل: - لا.. الطريق لا زال طويلا.

وعاد سمير الى القاهرة وتوالت القصائد المنشورة تباعا، لكن الأستاذ عزيز فتحي لم يجد بعد القصيدة التي تقنعه بتلحينها بين قصائده، لكن اللقاء بينهما كان مستمرا. وكان يقول له دائما:

- من المؤكد انك ستكتب يوما القصيدة التي أتوقعها منك.

وكان ذلك يدفعه للقراءة والاطلاع على الاشعار الجديدة العربية والأجنبية، وفي نفس الوقت يدفعه بعيدا عن الدراسة المنظمة المنتظمة في اطار المنهج الجامعي. وكان يرى أنها تحد من انطلاقه في الكون الرحب وعالم الشعر الفسيح. وكان يشجعه على ذلك طالب فاشل فصل من الجامعة واحترف

كتابة النقد في احدى المجلات، وكانت دوافعه تجاه سمير ينقصها الاخلاص، كما كانت رؤيته للمجتمع تشوبها الكراهية. . الكراهية لكل شيء. . صار هذا الناقد الشاب ملازما لسمير يتملقه في حذر ويدعو نفسه للعشاء أو الغداء على حسابه بعد اغداق المديح على احدى قصائده، وسمير ساذج لا يدري أن هذا الصديق المزيف انما هو معول هدم وضعته الاقدار في طريقه. وشيئا فشيئا صار هذا الناقد يدعوه للتجربة في مجال الشعر وذلك شيء طيب في ظاهره، غير طيب في نواياه. بدأ هذا الصديق يتحدث عن الشعر الذي يكتبه سمير على أنه جميل لكنه تقليدي، فهو يرى ان العروض التقليدي ممثلا في بحور الخليل بن أحمد يحد من انطلاقه، ربما كانت الدعوة الجديدة في ذلك الوقت لها أنصارها، لكن أسوأ ما في الأمر أن هذا الصديق صار يسخر علانية من كل الشعر ذي الشطرين. وأطلق عليه اسم «أبو ضلفتين» ومن خلال قدرة هذا الناقد الشاب على التملق استطاعت دعوته أن تصادف هوى في نفس سمير.

وشيئا فشيئا. . راح سمير يقتنع أن قصائد الحب وحدها لا تكفي لصناعة شاعر وأنه لا بد أن تكون له «قضية» واستغرب سمير كلمة قضية في مثل هذا المجال وسأله:

- قضية أحوال شخصية أو مدنية أو جنائية؟

وظن الناقد الشاب ان سميرًا يسخر منه فانفعل وقال :

- أنا جاد فيما أقول . . قضية من قضايا المجتمع . . أشياء تهم الناس . . تعبر عن معاناتهم. هناك شعراء كثيرون بالاسم، لكن الشاعر الحقيقي هو ذلك الذي له قضية يجند نفسه للعمل من أجلها ويضحي من أجلها بالغالي والنفيس . . بكل شيء اذا لزم الأمر.

واستطاع الناقد الشاب «عاطف» أن يبهر سمير بتعبيراته الجديدة على أذنه والتي استقى معظمها من الفكر اليساري بوجه عام والماركسي بوجه خاص. صار سمير دائما يرى بصحبة عاطف. ومرة اصطحبه الى البلد وعرفه بأبيه الذي لم يسترح له لمجرد انه رآه يأكل بطريقة شرهة . . وصارح ابنه بمشاعره، وطلب اليه ألا يحضر معه الى البلد مرة أخرى . فبسرعة فائقة استطاع عاطف تكوين صلات مع أصدقاء سمير الذين كان قد عرفه بهم في أول زيارة له للبلد بصحبته بانه أديب وناقد. فصار يتردد عليهم بعد ذلك من دون صحبة سمير ودون دعوة منهم، لكنهم كانوا كريفيين كرماء يرحبون به دائما ويسعدون بزيارته. وشيئا فشيئا بدأ يحدثهم بكل امور الحياة والمجتمع في القدرة على الكلام فهو ليس بمثقف بقدر ما هو ذرب اللسان. لذا كان في النهاية

يستدرجهم الى الاقتناع بوجهة نظره ليس عن عقل ورجاحة تفكير، وانما لسذاجة فيهم وقلة تجربة وخجل من احراج الضيف أحيانا.

كان سمير يتعمد عدم الالتقاء بعاطف في البلد فلا يسافر الى هناك يوم سفره حتى لا يغضب والده لكنه كان لا يستطيع تفادي لقائه في القاهرة، فهو يصادفه في كل مكان. فقد كان شابا يتمتع بشخصية حركية جدا وهو ذو تأثير نفاذ فيمن يلتقي بهم، وبالفعل أثر في سمير وجعله يجند شعره لمعركة ليست معركته لكنه أوهمه انها معركته وانها قضية المجتمع المصري بأسره بل قضية الانسانية جمعاء، مما جعل سميرا يتمادى في الامر تحت تأثير هذه العبارات الطنانة الرنانة، الى أن جاء يوم ما وجد نفسه مقبوضا عليه.. مساقا الى النيابة حيث وجد هناك عاطفًا واصدقاءه أبناء السنبلاوين الذين قالوا إنه هو الذي عرفهم بهذا الناقد وإنه السبب فيما هم فيه الآن. واعترف هو أنه من عرفهم به لكنه لم يكن يعرف أنه شكل منهم تنظيما، لأنه لم يجمعه لقاء به وبينهم سوى مرة واحدة. وأنه يلتقي به في القاهرة فقط، لكن ليس ثمة تنظيم يضمه واياهم. وناقشه وكيل النيابة في قصائده التي تنضح بالأفكار التي وصفها بأنها مشبوهة، لكنه قال انه يدافع عن المظلومين في كل مكان في العالم وإن قصائده منشورة في

الصحف وليست منشورات سرية، وان رئيس التحرير لو وجد بها شائبة لما نشرها.

وأفرج عنه بعد أن اقتنع وكيل النيابة بمنطقه، لكن الآخرين من أهل بلده وكذلك عاطف لم يفرج عنهم الا بعد مضي فترة طويلة، وظلوا تحت أعين السلطات معظم الوقت. أما هو فقد اصابته أزمة مصدرها احساس بالجرم انتابه من أنه تبنى قضية موضع شبهات على الأقل من جانب البعض، علاوة على أن عاطفًا أشاع بين أهل بلدته من المقبوض عليهم أنه هو الذي وشى بهم، وهو أمر ليس بالحقيقي ويثير الاحساس بالخجل لديه من أهل بلدته الذين يحبهم. وتقوقع ولزم حجرته في المدينة الجامعية حتى أحس أخوه محمد أن الأمر يستدعي اخطار والده بالتليفون.

فحضر طاهر أفندي المصري مهرولا، ووجد ابنه في حالة نفسية مكتئبة يرثى لها وشاور محمدًا ماذا يفعل فأشار على أبيه أن يصحباه الى طبيب نفسي. وفعلا، وقع اختيارهم على أستاذ جامعي في الطب النفسي ذهبوا اليه، وكم دهشوا أنه لا زال شابا. وترددوا عليه عدة جلسات لكن سميرًا كان يلتزم الصمت مما استدعى علاجه بالصدمات الكهربائية. بعد ذلك بدأ الطبيب يتحدث معه كصديق حقيقي، وارتاح سمير لذلك وحدثه بدخيلة نفسه وبأن لديه شعورا ينطوي

على احساس بالظلم مضاعف، مرة لأنه استدعي في قضية ليس طرفا فيها ولا خصما فيها، ومرة لأنه تسبب بسذاجته في ايذاء أصدقائه من أهل بلدته بتعريفهم بعاطف الذي أشاع بينهم أن سميرا هو الذي وشى بهم. وأخذ الطبيب يخفف عليه الأمر ثم يسأله أن يسمعه قصيدة، فألقى عليه قصيدة من الطراز الذي ينضح بالمرارة. وفي زيارة أخرى ألقى قصيدة تفيض بالغضب حين طلب منه أن يسمعه قصيدة.

وفجأة سأله: - متى كتبت آخر قصيدة حب؟

وأخذ يفكر ويتذكر.. وحين تذكر طلب منه الطبيب أن يسمعه القصيدة فقال:

- أنا أخجل من قصائد الحب.. لقد صرت ناضجا.. أنا أكتب الآن أشعارا لها قضايا.

ودهش الطبيب وقال: - الحب أكبر قضايا الانسانية وأولاها باهتمام الشعراء. ولولا الحب لما استمر وجود الانسان حتى الآن وبالتالي ما كانت الحضارة، ولا الثقافة، ولا العلم الذي تدافع عنه.

ثم اختتم كلامه مداعبا: - ألا تسمع الأغنية التي تقول «من غير حب الدنيا دي ايه»؟

وحرك سمير يده في رفض لاختيار الطبيب وامتعض لذكر الحب. فقد كان لا يزال تحت العلاج لكنه في تقدم مستمر.

قبل أن يخرج سمير الى أبيه وأخيه قال له الطبيب الأستاذ:

- انا أتحداك أن تكتب قصيدة حب . . عشرون جنيها أعطيها لك هذا غير ما ستأخذه حين نشرها هل توافق؟

ويهز سمير رأسه في تحد دلالة على الموافقة، ويسأله الطبيب:

- في الزيارة القادمة . . لا تحضر الا ومعك القصيدة . . شرفت بمجيئك .

ويخرج سمير من حجرة الطبيب ويدخل والده وأخوه طلبا للطمأنينة. وبعد قليل يخرجان بعد أن طمأنهم الطبيب ونصحهم بأن يصحباه فترة الى البلد لتغيير الجو.

وفي البلد تستقبله أمه وأخوه أنس وأختاه بالقبلات. وهناك يركن الى الراحة والخضرة والهواء النقي، لكنه يظل حريصا على عزلته ويرفض مقابلة الضيوف الذين يسألون عنه ويقول لهم:

- قولوا اني نائم .

-٢٢-

كانت نظلة دائما تأتي بالأخبار للست سعاد عن كل شيء يدور في البلد، واليوم أتت لها بخبرين: البنت فاتن الشناوي التي تسبَّبت في فضيحة لامها ولاخوتها الرجال بعد أن ضبطت في شقة يستأجرها «أحمد بن سامي وهبه» عضو البرلمان عن الدائرة في العهد الملكي. فأحمد هذا معروف عنه المجون وأنه خصص هذه الشقة لتحقيق نزواته. وقالت إن بواب العمارة هو الذي اكتشف المسألة من كثرة ترددها على العمارة، فتقصى الأمر حتى عرف ان لا صلة لها باحدى سيدات او بنات العمارة، فأغلق البوابة وهتف بأعلى صوته:

- «يا خلق هوه». فتجمع الناس على صوته وقصَّ عليهم الأمر وتجمع المارة، ولم يستطع أحد أن يخرج بها امام هذا الجمع الى أن تدخل زوج أختها وأحد أصدقائه وفض الجمع. ومكث في الداخل حتى هجع الناس آخر الليل وخرجا بها بعد أن ألبسوها جلبابا طويلا اسود وطرحة غطت بها

وجهها، لكن الفضيحة كانت بجلاجل . . وعلى كل لسان .
أما الخبر الثاني فهو حكاية «أم السعـد» الفقيرة التي تعلم ابنهـا في الجامعـة وعـرضت على الكثيرين شراء بيتهـا، لكن المشترين كـانـوا يبخسـون البيت قـدره، فعـزفت عن بيعـه معتمـدة على مسـاعـدات أهل الخير، حتى كـان ذات يـوم ذهبت احـدى النسـاء تملأ صفيحـة مـاء من طلمبـة بيت أم السعد وشربت من ماء الطلمبة فشعرت أن مـذاقـه كمـذاق الجاز. فأشاعت الخبر في البلدة همسا، وراح النـاس يترددون فـرادى وجماعـات على بيت أم السعـد في زيـارات مفتعلـة يطلبون أثناءها الشرب من الطلمبة للتأكد من الخبر. ويزداد انتشار الاشاعة فيأتي «أبو الفتوح بركة» الثري الجاهل المستغل الذي سبق أن عرضت عليه شراء بيتها فعرض عليها حينذاك أبخس ثمن، جـاء اليوم سرا حتى بـدا كمن جـاء ليسرق وعـرض عليهـا ثمنـا بـاهظـا لبيتهـا، وظلت تسـاومـه حتى حصلت على أعلى سعر وختمت على العقد بخاتمها وقبضت الثمن مقدما على أن تصحبه للتسجيل في اليـوم التـالي وتخلي البيت. ورجاها أبو الفتوح بركة ألا تخبر أحدا بأن طلمبة بيتها تضخ الجاز حتى يستطيع أن يشتري المنـازل المحيطـة بـالمربع كله. وردت هي في تظاهر بالسذاجة :
- وهـل قلـت لـك ان طلمبتـي تضـخ الجاز؟ . . هــذه

اشاعات.

وردهو في سعادة انتهازية:

- شاطرة.. قولي هذا لكل الناس يا أم السعد.. قولي هذا الكلام في كل مكان.

وعلقت نظلة:.. «واشترى أبو الفتوح المربع كله بأثمان خيالية وسجل البيوت كلها. وفجأة «طلع نقبه على شونة» فالمنقبة ثبت انه ليس فيها لا جاز ولا غيره.. فقط ثبت أنه مصاب بصرع المال وكل ما في الأمر أن أم السعد كانت قد ركبت جلدة جديدة للطلمبة وأفرغت عليها بعض الجاز حتى تلين الجلدة. ولما سرت الاشاعة تمادت أم السعد وأخذت تفرغ كل يوم صفيحة جاز في الطلمبة. وسقط أبو الفتوح بركة مغشيا عليه حين اتضحت حقيقة الأمر ونقلوه الى بيته في حالة شلل يديه ورجليه ولسانه.. أرأيت الطمع يا سيدتي ونهايته.»

وكانت سعاد تستمع لنظلة وهي في شغل شاغل عنها بالتفكير في ابنها سمير الذي يحبس نفسه في حجرته ولا يقابل أحدا. كانت تفكر في أن تستشير نظلة في أمره، فنظلة كثيرا ما كانت تروي لها عن الأعمال والسحر الذي يصيب الانسان وان بعض الدجالين التي تصفهم بأنهم شيوخ، لهم كرامات في الأعمال والسحر. لكن الست سعاد كانت تخشى أن

تغضب طاهر أفندي الذي حذرهـا ألا تتحـدث مع أحـد في مـوضـوع سمير حتى لا تكثـر حـولـه الأقـاويل وتحطمـه الشـائعـات التي اشتهـرت البلـد بها . فقصت الست سعـاد قصـة مختلفـة على نظلـة . . أن ابنـا لاحـدى صـديقـاتها في المنصورة مريض وأن الطب قد احتـار في أمـره وأنها تـريـد أن تساعد صديقتها بشكل سري لأن طاهر أفندي يرفض مسألة السحـر وسيغضب اذا علم أنها ذهبت لأحـد هـؤلاء الـذين يقولون إن لهم كرامات ولكنها تريد أن تخدم صديقتها .

وردت نظلة قائلة : - خادمتك يا سيدتي . . فقط أعطني أثرا منه .

وردت الست سعاد على الفور: - صديقتي أعطتني هـذا المنديل . . هل يفيد؟

وترد نظلة : - يفيد طبعا .

وناولتها الست سعاد عشرة جنيهات وقالت لها : - اذهبي الآن في التـو . . واذا عـدت من عنـد الشيخ بنتيجـة . . لك عندي الحلاوة .

وتخرج نظلة على الفور متجهة الى بلدة الدجال المجـاورة . وفي الطريق اليه تتعرف على منديل سمير فقد تعـودت الست سعاد أن تشغل أول حرف من اسم كل ابن من ابنائها وبناتها على طرف المنديل الخاص به بالخيط الملون والابـرة . وتبـدأ في

الربط بين قصة ابن صديقة الست سعاد وبين ابنها سمير الذي يلزم حجرته في البيت لا يبرحها، وبين المنديل الذي عليه أول حرف من اسم سمير. . حرف السين فهي تراه في الغسيل دائما. ويستدرجها الشيخ في الحديث وهي على استعداد دائما لأن ترغي وتزبد في الحديث. ومنها يعرف حكاية سمير بالقدر الذي لاحظته نظلة، وينصحها الشيخ بأن الوحدة علاجها الأنيس. . وأن الزوجة خير أنيس.

وتستفسر نظلة: - تعني أن نزوجه؟

فيقول لها: - بارك الله فيك.

ثم يصرخ: - ليدخل من هو دوره.

وتنهض هي خارجة بعد أن تقبل يده، وتهرع الى الست سعاد التي انتظرتها طويلا حتى عادت بعد أن نام الجميع، فانفردت بها وعرفت منها اقتراح الشيخ وزادتها رغبتها في الفرح اقتناعا بالفكرة. وتساءلت بينها وبين نفسها كيف تعرض الفكرة على طاهر أفندي وهي تعرف أنه مؤمن بأنه لا زواج لأحد من أبنائه أو بناته قبل اتمام تعليمه الجامعي، ذلك اذا جرؤت على أن تصارحه بأنها لجأت لأحد هؤلاء الشيوخ المزعومين.

وفي مساء اليوم التالي تتودد الى طاهر أفندي وتهمس له مخففة كما لو كان اقتراحها هي: - يا طاهر أفندي لا تقلق

بشأن ابننا سمير ان شاء الله، مرضه هو الشعور بالوحدة والشعور بالوحدة علاجه معروف كما تعرف.

ويقول طاهر أفندي: - أنا لا أعرف.. ما علاجه يا ستي؟

- الوحدة علاجها الأنيس.

- ماذا تعنين؟

- أعني أن نفرح سمير ونفرح معه.

- تقصدين أن نزوجه؟

- ها قد فهمت.

- وأنت لا تفهمين.. انه مريض يلزمه علاج.

- والزواج علاجه.

- وهل هناك عروس تحت نظرك.

- كل بنات البلد يتمنون أن نطرق بابهم.

- والله.. ليس قبل أن يكمل علاجه.. ويكمل دراسته.

- هذا هو علاجه.

- علاجه عند الطبيب.. وليس عند الحريم.. تعقلي يا سعاد.

- انني أحس أن الزواج سيريحه.

- يا سعاد سمير في أزمة بعيدة عن موضوع الزواج..

انتقاله من جو هادىء في السنبلاوين لجو الضجيج في مصر نقلة كبيرة . . الناس غير الناس . . والأفكار غير الأفكار . . المجتمع المفتوح هناك بعاداته وتقاليده وأخلاقه غير المجتمع هنا في البلد . . لا يجب أن نترك الأولاد في مصر وحدهم بعد هذا .

- ماذا تقول ؟

- سأطلب نقلي الى مصر .

- والأرض ؟

- بدلا من أن يزرعها الفلاحون مناصفة سأؤجرها لهم .

- نحن الخاسرون بذلك . . ايجار . . ايجار ملاليم .

- المهم مستقبل أولادنا .

- كلامك عين العقل . . وأشوف مصر أم الدنيا . . ونترقى . . وبناتنا يصبحن من بنات مصر .

- هذا ما يهمك في الموضوع .

- لا . . وننتبه للأولاد ومستقبلهم .

- من الغد سأتقدم بطلب نقلي وأتابع الطلب وسأشرح للمسئولين في الوزارة ظروفي التي تقتضي بالاضافة لرعاية الأولاد في الجامعة ، علاج سمير علاجا ناجحا حتى لو كلفني ذلك كل ما أملك . أيقظيني مبكرا يا أم محمد . . أنا ذاهب الى القاهرة .

واتجه طاهر أفندي الى فراشه واستلقى على السرير بعد أن خلع نظارته ووضعها على طاولة بجوار سريره. وفي اثره دخلت زوجه الى فراشها ونامت وهي تحلم بشفاء ابنها المريض وحياة القاهرة تلك المدينة الزاخرة بالأبهة وأسباب الرفاهية. العامرة بمآذنها وقبابها. وهمست لنفسها قبل أن تنام «مدد يا ست زينب يا طاهرة».

-٢٣-

صحب سمير والده طاهر أفندي في رحلته الى القاهرة. وهناك انضم اليهما محمد الذي يتدرب مع طلبة السنة النهائية في أحد المصانع، ورافقا والدهما في كل جولاته من أجل انجاز مهامه في القاهرة. . وكان والدهما يصر على ركوب الترام البطيء الذي كان وسيلته طوال مدة دراسته بالمعلمين العليا. وكانا هما يقبلان ذلك على مضض، هما اللذان تعودا ركوب «الاوتوبيس» وكانا يقولان لوالدهما إنه يصر على الانتماء لجيل السلحفاة. وكان هو يقول مازحا: «أما أنتم فتقفزون يا جيل الأرانب المذعورة، بينما نحن كنا نسير بخطى وئيدة لكنها واثقة راسخة».

وفي وزارة التربية التقى بصديق قديم له هو «ثروت بك» الذي صار مستشار المادة بالوزارة وتقدم اليه بطلبه. وصارحه صديقه بأن مناطق القاهرة التعليمية تكاد تكون مناطق مغلقة تماما. وثار طاهر أفندي الذي لا يثور الا مرة كل سنوات

وسنوات وقال لصديقه :

- هذا هو أول طلب أتقدم به لك وللوزارة منذ عينت بها. وتسأل ألا يشفع له عمره الطويل في خدمة الوزارة في تحقيق مطلب عادل له؟، ومن أجل صالح أبنائه؟. وانقلب طاهر أفندي محاميا يترافع في قضية عمره. . «رعاية أبنائه الجامعيين وعلاج ابنه المريض» وأضاف :

- لقد كنت أتنازل عن الترقيات دائما من أجل البقاء الى جانب أولادي في السنبلاوين. أما وقد انتقلوا طلبا للعلم في القاهرة فلا مناص من الانتقال معهم لرعايتهم. كما أنني لا أستطيع أن أفتح بيتين. وصرخ في نهاية كلامه :

- لقد كنت دائما أتنازل من أجل أبنائي. . اليوم لن أتنازل ومن أجل أبنائي أيضا. . انني لو كنت خفير عزبة لكنت الآن صرت ناظر عزبة. . سأدخل لوكيل الوزارة.

وارتبك صديق طاهر أفندي بسبب علو صوته وربت على كتفه مهدئا وقال له :

- أعدك أن أبذل قصارى جهدي. . أعطني فرصة أسبوع، بعدها لك الحرية في أن تفعل ما تراه مناسبًا واترك لي الطلب.

وبالفعل ترك طاهر أفندي طلبه بعد هذه المرافعة العظيمة وخرج وقد تولد لديه احساس انه يترافع في قضية، وليس

لأحد بها دراية أكثر منه ، ولديه كل الأسانيد ومن ورائه عمر مديد قضاه مخلصًا في عمله وتشهد على ذلك تقاريره الممتازة ، فهل لها أن تنفع له في النقل . وتساءل هل أسلوب طلبه عن عدالة مطلبه أم أن أسلوبه بعد هذا العمر الطويل صار يحتاج الى صقل؟ ولكن كيف وهوالشاعر الذي أنفق عمره في خدمة الصور البليغة والتفعيلات المنغومة والقضايا العادلة :

قضى طاهر افندي النهار مع ابنيه محمد وسمير يشترون ما طلبته الام والبنتان .

وفي المساء فاجأ طاهر أفندي سميرًا بقوله :

- ما رأيك لو نمر على الطبيب ما دمنا هنا؟

وانفعل سمير قائلاً : - لكنني لم أكتب القصيدة بعد .

- أي قصيدة؟

- قصيدة الحب التي طلبها . . وإلا سأخسر الرهان .

- يا رجل . . الطبيب كان يمزح معك .

واقتنع سمير او هو أقنع نفسه برأي والده وذهب الى الطبيب الذي فاجأه بسؤاله :

- هل كتبت القصيدة؟

- ورد سمير في انفعال قائلاً : - قالوا لي انك كنت تمزح .

- لم أكن جادا في شيء أكثر من طلبي هذا منك .

فسأل سمير: - كيف تكون القصيدة بهذه الأهمية؟

قال الطبيب: - ان علاجك الحب.. ولكي تكتب قصيدة حب لا بد أن يولد الحب جديدا في داخلك.

- كيف يكون الحب علاجا؟- الحب هو الذي يعيد صياغة الحياة.. وحياتك في حاجة لاعادة صياغة.

- كيف؟

- أقبلت على القاهرة بمبانيها وأفكارها وحضارتها وثقافتها وملاهيها وجمالها بقلب محب ريفي طيب فبهرتك حتى تغنيت بها حبا.. ثم صدمتك بما فيها من غش بعض أبنائها ونفاقهم فارتددت على عقبيك مذعورا وتقوقعت في البيت محصورا. أقبلت بالحب وصدمت بقدر حبك لها، فتحولت الى الكراهية والكراهية لا تصنع فنا ولا تعمر مجتمعا بل تحطم كل شيء أمامها وتدمر.

كان طاهر أفندي سعيدا بهذا التحليل يهز رأسه دلالة على الموافقة على ما يقوله الطبيب وعجب من أن الطبيب العالم يعلق كل هذه الأهمية العلاجية على قصيدة حب. وخامره احساس بالزهو لأنه لم يكف طيلة عمره عن التغني بقصائد الحب للجمال وللوطن.. وقال لنفسه «هذا يشهد أني انسان سوي».. وتساءل: «هل يصبح المريض بعد أن يحب مُعَافى وقويا؟ وهل ثمة أمل في أن تصنع الأيام من الشاعر بطلاً شعبيًا؟.. ولِمَ لا؟.. ألم تكن تلتهب للقصائد من التصفيق

الأكف وتتغنى بها المطربات ويلتزم بتفاعيلها وأنغامها كل الآلات حتى الدف».

وخرج ثلاثتهم من عند الطبيب بعد أن كتب له بعض الأدوية.. وأوصى بأن الطبيعة الخلابة والجو النقي خير وأهم علاج له.. وأن تنقية القلب من شوائب الكراهية وغرس بذرة الحب فيه هو الذي سينبت شجرة الحب ذات الظلال الوارفة التي يستريح تحتها المجتمع كله وسمير واحد من هذا المجتمع. وسمير بعدها سينطق شعرا في غدوه ورواحه.. وسيصدح الطير الأخرس بالغناء معبرا عن افراحه واتراحه.

ومن محطة السكة الحديدية برمسيس ركب طاهر أفندي وابناه قطار الساعة التاسعة مساء في أول عربة فيه متعجلين للوصول الى بيتهم. فقد كانوا رغم كل شيء سعداء بما حققوه في يومهم من انجازات على رأسها بشرى الطبيب بقرب مقدم الشفاء الى سمير فقد كانت تلك امنية جميع أفراد الأسرة. وشرب ثلاثتهم المرطبات في القطار وراح طاهر أفندي يحدث أبناءه بقصة كفاحه من أجل التعليم وكيف بدأ تعليمه في سن الحادية عشرة وحصل على الابتدائية من منازلهم في الثانية عشرة ثم البكالوريا التي عمل بعدها وتزوج والتحق بالمعلمين العليا. وكان يسافر بعد مواعيد العمل كل يوم او يومين لنقل المحاضرات واستيضاح ما غمض عليه فهمه من

زملائه حتى وفقه الله وحصل على الدبلوم العالي، وروى لأبنائه كيف كان يحفظ بالاضافة الى دروسه مواعيد القطارات عن ظهر قلب وكذا وجوه الناس المنتظمين في السفر معه وربما اسماءهم. وكيف كان يتردد على المجلات والصحف لنشر قصائده من حين لآخر، وكانوا يستقبلونه بترحاب شديد لا يحظى به الا عدد قليل من شعراء القاهرة البارزين، ولكن كل ذلك انتهى بانشغاله بالزوجة والأبناء. ثم بعد ذلك بناء البيت الذي لم يتم طلاؤه من الخارج والداخل حتى الآن، كما أنه لازال من طابق واحد مع أنه مصمم ومؤسس بحيث يكون من خمسة طوابق. وراح يحدثهم بأن آماله معقودة عليهم في اكمال بناء البيت وأنهم أبناؤه الرجال عمد البيت الحقيقيون وأساسه المتين.. وتساءل بصوت عال كله قلق ووساوس وأسى: ترى هل تتحقق الآمال على أيديكم أيها الرجال أم أن الزمن ضنين؟.. كل ذلك رهن بنجاحكم في دراستكم وفي عملكم وبعدهما في كل حياتكم.. فأسأل الله تعالى التوفيق.. آمين.

ووصلوا الى محطة السنبلاوين واتجهوا من فورهم الى المنزل في الحادية عشرة ليلا. ورغم ذلك كانت الست سعاد والست أم طاهر ساهرتين في انتظارهم وقد استبد بهما القلق بسبب تأخرهم. واستيقظت الفتاتان على أصوات دخولهم،

فمجيء المسافر دائما يحدث ضجة، أو لعل الفتاتين كانتا في شوق لرؤية ما اشتراه والدهما لهما من مصر أم الدنيا حيث آخر صيحات الموضة في الأزياء وأدوات الزينة. وبالفعل قلبا في الأشياء وصرخا في انبهار «ربنا يخليك يا بابا. . ذوقك حلو». وأشار الأب الى محمد وسمير وقال هما اللذان انتقيا هذا.

وارتفع صوت الست أم طاهر بالدعاء قائلة: - عقبى لهما يوم ينتقيان لعروسيهما.

وأمنت الست سعاد على دعائها ثم قالت:

- ولكن بعد البنتين. . نعم فالبنات أولا.

وعلت وجهي البنتين حمرة الخجل العذري فانسحبتا في هدوء وصمت وسعادة، بعد أن وجدتا أن لهما أولوية في شيء ما. فالأولاد في مجتمعنا لهم الأولوية في أشياء كثيرة، فلا بأس أن تكون للفتيات أولوية ما حتى وإن كانت في أمر الزواج، ذلك العالم المبهم بالنسبة لهما والذي لا تجرؤان على القاء سؤال في شأنه. فقط يلتقطن عنه بعض الأفكار من خلال حكايات الفلاحات مع بعضهن البعض وأحيانا من نظلة التي تداعبهن أحيانا بعبارات مكشوفة مطرية جمالهن الأخاذ، مثلما قالت ذات يوم لجميلة التي تلبس ثوبا يكشف عن صدرها المحلى بعقد، وطلبت اليها جميلة الرأي في العقد الذي اشتراه لها أبوها من المنصورة. فقالت لها نظلة مداعبة

بكلتا يديها: «حب الرمان أجمل من حبات العقد».

وانسحبت الفتاة من أمامها في خجل مشوب بالغضب، ومنذ ذلك الحين كفت نظلة عن هذه المداعبات البريئة بعد أن نبهتها الست سعاد قائلة:

- عيب يا نظلة.. لا تفتحي عيون البنات.

وردت نظلة: - يا ستي لا بد أن نفهمهم في كل شيء.

وزجرتها الست سعاد: - وفرّي الفطنة لنفسك يا نظلة.

- حاضر يا ستي.

وبعد أن انتهت الفتاتان من تجربة الملابس التي اشتراها لهما أبوهما توجهتا في هدوء بعد تقبيل والديهما والجدة الى حجرتهما في حبور انعكس على محياهما. ومن بعدهما توجه الأولاد والأم والأب والجدة كل الى حجرته. وغمر البيت مع الليل نوم قرت به عيونهم جميعا ورسم على محياهم علامات الرضا والسعادة.

-٢٤-

صدر قرار بنقل طاهر أفندي الى القاهرة بعد خمسة عشر يوما من تقديمه الطلب. فقد شفعت له أقدميته في خدمة الوزارة، وتغربه أول سني خدمته في صعيد مصر، وتقاريره الممتازة وظروفه الخاصة بعلاج سمير ورعاية أبنائه في الجامعة. ولعل صداقته وزمالته لمستشار المادة قد لعبت دورا غير قليل في الاستجابة لمطلبه بهذه السرعة. وكم كانت فرحة الأولاد والبنات طاغية، خاصة أصغر الأبناء أنس الذي لم يرَ القاهرة مطلقا وكانت تتوق نفسه دائما لمرآها. وكذلك كانت فرحة الست سعاد بالانتقال الى القاهرة. أما الست سعاد أم طاهر فكانت الوحيدة التي لم يسعدها الخبر وتساءلت حين زفه اليها ابنها «هل تتغرب.. وتتركني هنا وأنا في آخر العمر يا بني»؟

ويرد طاهر أفندي: - تأتين معنا يا أمي.. وهل لي غنى عنك يا حاجة.. أنت الخير والبركة.

وأضافت الست سعاد: - طبعا.

وردت الست أم طاهر: - لا شيء يغريني بترك مكاني على آخر الزمن.. أنا مكاني السنبلاوين وسأعيش وأموت في السنبلاوين.

وأصّرت الست أم طاهر على رأيها وتشبثت به فلم يجد طاهر أفندي من الرضوخ لرغبتها واوصى بها أخاه ناصحًا خيرا وتعهد له أن يرسل أية مصاريف رعاية أو علاج لها، مما أثلج صدر ناصح وكان قد ساوره القلق بشأن مصاريفها حين علم بالخبر، رغم أن الست أم طاهر لها ايرادها الخاص الذي يكفي لاعالة أسرتين وأكثر.

ووعدت الست أم طاهر ابنها وزوجته بأنها سترسل لهم الخبز البيتي وخزين السمن والطيور وخلافه من خيرات ربنا الموجودة بالبيت.

وفي بداية العام الدراسي ذهب الى القاهرة طاهر أفندي ومحمد وسمير فقط، واتخذوا من فندق في «العتبة» نزلا مؤقتا لهم. وراحوا يزرعون بعد نهاية كل يوم دراسي شوارع «شبرا» حيث كانت مدرسة طاهر أفندي بحثا عن سكن قريب فهو الأولى بالراحة، وهما بوسعهما ركوب المواصلات الى الجامعة. وكان محمد وسمير يواجهان من قبل أصحاب البيوت بالاحجام أو الصد لأنهما أعزبان بدليل أنهما فوجئا ذات يوم

بأن والدهما قد كتب عقد ايجار لشقة سبق لهما أن طلباها من صاحبها وقال لهما إنها مؤجرة. ومع ذلك فرحا بهذا الانجاز الذي أنجزه أبوهما فقد كان له من سنه ووقاره خير شفيع عند صاحب البيت. وفي نهاية يوم الخميس سافروا جميعا لاحضار الأثاث.

وجمع طاهر أفندي الفلاحين وأخطرهم أنه سيؤجر الأرض لهم بالايجار القانوني، الأمر الذي أسعدهم. وبالفعل كتب لهم العقود الجديدة بدلا من العقود التي كانت تنص على اقتسام المحصول. وشمّر الفلاحون عن سواعدهم وحملوا أثاث بيت طاهر أفندي على سيارة النقل، وسافر خمسة منهم مع السيارة لانزال الأثاث في البيت الجديد بالقاهرة. وسبقهم طاهر أفندي وسمير الى هناك بعد أن أعطى السائق العنوان، وبقي محمد في السنبلاوين ليصحب بقية الأسرة الى القاهرة.

وفي القاهرة استقبل طاهر أفندي عربة الأثاث وأنزله الفلاحون في مهارة وفتوة تستعصى على العتالين المحترفين، وصعدوا به الى الطابق الرابع دون خدش واحد كما أوصتهم الست سعاد. والحقيقة أن الأثاث كان متينا، فهو صناعة يندر أن تتكرر في هذا الزمان، ربما لتصاعد أسعار الخشب وبداية انقراض المهنيين، وربما بسبب شروعهم في الهجرة الى البلاد العربية وبسبب اقبال الأهالي على تعليم أبنائهم

والحاقهم بوظيفة. فالوظائف أصبحت قبلة الناس في هذا الوقت وخاصة الوظيفة الميري بعد أن اجتاحت الدعوة الى التمرغ في ترابها عقول الناس الذين لا ينتظرون نظرة واعية متفحصة الى المستقبل بمتغيراته الكثيرة. وبعد انزال الأثاث بقليل وصلت سيارة الأجرة التي تقل بقية الأسرة، وأشرفت الست سعاد على تركيب الأثاث المفكك واختيار موقع كل قطعة منه في الشقة. وبعد الانتهاء من ذلك صحب محمد الفلاحين لزيارة «سيدنا الحسين» بعد أن وضع طاهر أفندي في يد كل منهم ما فيه القسمة. وبعد انتهاء الرجال من زيارة سيدنا الحسين أوصلهم الى محطة القطار. وبقي معهم حتى ركبوا، وأعطاهم التذاكر، ورجعوا الى السنبلاوين وهم مجبورو الخاطر.

-٢٥-

في يوم الجمعة التالي خرجت الأسرة لأول مرة في صحبة الأب الى المدينة العامرة. . القاهرة! تلك أول مرة يرون هذه الشوارع الكبيرة الواسعة والعمارات الشاهقة، بالمقارنة بطرقات السنبلاوين الضيقة شبه الخالية من المارة وبيوتها القليلة في عدد طوابقها. أما القاهرة فشوارعها الواسعة تعج بالحركة، والسيارات تذرع الشوارع ذهابا وجيئة في سرعة خاطفة. لذلك لا غرابة إن وقفت الست سعاد مشدوهة هي وبناتها الريفيات عندما دغاهن طاهر أفندي الى عبور الطريق معه. وتسمرت قدما الست سعاد وصرخت حين حاول طاهر أفندي جذب يدها لعبور الطريق وكأنه يسوقها الى الهلاك. وانتبه طاهر أفندي الى درجة الهلع التي أصابتها وطمأنها وراح يشير الى السائقين بالتريث حتى يمكنهم العبور، وبعد أن عبروا ضحك طاهر أفندي بقهقهة عالية. وعاتبته الست سعاد قائلة:

- انت قد اعتدت المدينة يا طاهر أفندي . . فقد كنت تجيء الى القاهرة كثيرا دون أن تصحبني معك . . لو كنت تصحبني معك لكنت تعودت مثلك . . وربما كنت أتوهك في شوارع مصر.

وربت طاهر أفندي على كتف زوجته وقال لها :

- وها أنت يا سعاد قد جئت الى القاهرة . . تعودي من الآن فصاعدا . . حتى لا تضحكي أهلها علينا .

وراحوا جميعا يتجولون في شوارعها مبتدئين بشارع شبرا . ولم يشعروا برغبة في ركوب وسائل المواصلات فهم قد تعودوا أن يجوبوا شوارع السنبلاوين على أقدامهم. وغاب عن ذهنهم أن شوارع القاهرة شيء آخر. حتى قالت الست سعاد :

- ياه كل هذه شبرا يخيل اليّ أنها أكبر من السنبلاوين .

وعلق طاهر أفندي : - تعبت يا أم محمد . . سنركب الترام في طريق العودة .

وردت الست سعاد : - نعم أتمنى ركوبه من زمن . . بذلك تكون قد اكتملت الفسحة .

وابتسم طاهر أفندي وخطر له أنه فعلا وفق في حياته باختياره الست سعاد زوجة له . فهي قنوعة يرضيها القليل . . وأن ذلك وحده نعمة من الله ، ويجدر به أن يدعو الله أن

يديمها عليه .

اشترت الست سعاد وبناتها ما تاقت اليه نفوسهما في ضوء المبلغ الذي اعتمده لهم طاهر أفندي، وكذلك فاز الأولاد بنصيب من هذه الميزانية، وعادوا جميعا الى شقتهم وقد عم الرضا نفوسهم خاصة الست سعاد .

شيء واحد كانت تعجب له الست سعاد أن النساء في القاهرة مشغولات عن كل من حولهم من الجيران . فمعظمهن موظفات، حتى التحيات لا يتبادلنها الا بسبب يعرف من الحوار الذي يلي التحية «لو سمحت اجمعي الغسيل لأني سأقوم بالتنفيض . . غسيلكم تتساقط منه قطرات الماء اعصروه جيدا» لم يتعد الحوار ذلك وحتى أسماء جيرانها . . أو السكان الذين يسكنون قبالة بيتهم لم تكن هناك وسيلة لمعرفتهن . . كلهن تقلن لبعضهن «يا مدام» هي تعرف من مرة سألت فيها طاهر أفندي عن معنى كلمة في قصيدة له هي «المدام» فقال لها إنها الخمر فكيف ينادين بعضهن بهذا الاسم المنكر ألا تستحي نساء القاهرة من هذه التسمية؟ وعلقت بينها وبين نفسها قائلة «لعلهن ماهرات في امالة رؤوس أزواجهن مثل الخمر، سيدات البندر قادرات . . هو كذلك كما فهمت» .

ولأن الست سعاد لا تعرف أسماء جيرانها المحيطين،

والذين أمامها، ولأنها بحكم طبيعتها الريفية الخجولة لا تحب أن تبدو متطفلة بأن تسألهن، فقد أطلقت عليهن أسماء من اختيارها هي من أسماء الممثلات ومطربات التلفزيون حسب أوجه الشبه بينهم.. فتلك التي تسكن على ناصية الشارع هي «صباح» المغنية، وتلك «فايزة أحمد» وتلك «نجاة الصغيرة» وهذه التي تسكن تحتها «فايزة كمال» وتلك الأخرى «نجوى فؤاد». كل تلك الأسماء التي اختارتها الست سعاد بعناية فائقة وأطلقتها على جاراتها حتى تستطيع أن تقص أحداث كل يوم أولاً بأول على زوجها طاهر أفندي. وبالتالي أطلقت على الأزواج زوج صباح وزوج فايزة أحمد... وهكذا. وعندما جلست ذات يوم تحدث طاهر أفندي بالأسماء التي اختارتها لجيرانها، فاجأها طاهر أفندي بسؤال هو؟

- ترى ماذا أسماك الجيران وأهل المنطقة؟

وضحكت الست سعاد ملء شدقيها وقالت لزوجها:

- لوكانت نظلة معنا في القاهرة، لكانت جاءت الي بكل الأخبار حتى لو كانت مختبئة في قمقم، ولكانت حملت عني عبء شغل البيت. فها أنا على آخر الزمن أكنس وأمسح وأغسل فأجر الشغالات مرتفع.

- البنتان ما شاء الله كبرتا ولا بد من مساعدتهما لك.

- انهن مشغولاتان بالمذاكرة يا طاهر أفندي، ومع ذلك يساعدنني أحيانا رغم أن واحدة منهن في الثانوية العامة والأخرى في الصف الثاني الثانوي.

- جميل أن تساعداك في شغل البيت والمطبخ حتى تعمّرا البيوت فيما بعد.

- يا هنا من يعيش حتى يجيء هذا اليوم.. يوم تزدان بهم الكوشة.. والنبي كنت... وسكتت الست سعاد فجأة.

فقال طاهرأفندي: - أكملي يا سعاد.. كنت ماذا؟

فقالت سعاد بعد تفكير قليل: - كنت أعمل ليلة لأهل الله.

- قولي يا سعاد كنت ماذا؟

- يووه يا طاهر أفندي.. كنت أرقص.

- هيا اعملي «بروفه».

وعلت حمرة الخجل وجه الست سعاد ونهضت وهي تتساءل وتتحزم بشال قديم: - حقا يا طاهر أفندي؟

فأومأ لها دلالة على الموافقة خاصة وأنه كان قد عاد مبكرا بعد انتهاء آخر حصصه. وكان الأولاد والبنات لا يزالون بالخارج، واندمجت سعاد في الرقص وأمسك لها طاهر «الواحدة» على أحد كراسي الخيزران وقد تهلل وجهه سعادة وبشرا. فقلما تسنح الظروف لهما بمثل هذه الخلوة النهارية.

وفجأة سمع صياح الساكنة التي تسكن تحتهما وهي تقول «ما هذا الضجيج.. حرام عليكم.. الرجل مريض،» وخجل طاهر أفندي من موقفهم وتوقف عن التطبيل وكذلك أجهضت رغبة الست سعاد في المرح والرقص وقالت همسًا وهي تفك الحزام من حول وسطها

- ليجازيك الله.. الواحدة لا تستطيع التفريج عن نفسها.. ولا عن زوجها.

- احتشمي يا سعاد.

وقالت سعاد وهي تعود الى صمتها: - حاضر يا طاهر أفندي...

وفجأة تذكرت وقالت بعد أن شمت رائحة شياط وهي تجري: - نسيت الأرز على النار.. شاط.

وقال طاهر أفندي مازحا: - «والله لا أعرف ان كان الأرز هو الذي شاط أم أنت». وضحك ملء شدقيه.

وعادت الست سعاد بعد قليل من اطفاء موقد الغاز وقالت: - أنت السبب يا طاهر أفندي.. ذكرتني بالأيام الخوالي حتى نسيت نفسي ورقصت ونسيت الأرز.

وقال طاهر أفندي:

- أنا السبب؟

وقبل أن ترد دق جرس الباب. فهرعت الست سعاد

لتفتح فاذا بالبنتين قد عادتا من المدرسة فجلستا كالعادة تستريحان من عناء صعود السلم العالي وبدأتا تقصان قصتي يومهما الدراسي بكل دقائقه، فهكذا عودهما أبوهما وأمهما منذ التحقتا بالمدرسة الابتدائية. وكانت طبيعة الحكايات تتغير من مرحلة لمرحلة مع التقدم الى مرحلة النضوج الذي تتغير معه الاهتمامات. فهما في هذه المرحلة تهتمان بالمدرسة الأنيقة الجميلة التي تدرس لهما مادة الرسم والتي تنتهز فرص الحصص الاحتياطية لتلفت نظر الفتيات الى الجلسة الصحية للآنسات حتى لا يتأثر بناؤهن الجسماني. وحذرتهن من وضع ايديهن على خدودهن حتى لا تتأثر خدودهن الجميلة الوردية. وهكذا كانت هذه المدرِّسة تسكن في قلوب التلميذات لأنها كانت تحدثهن فيما لا يحدثهن فيه أحد، وتذكي أحاسيس الأنوثة لديهن.

ومرة سمعت الفتاتان من أخيهما محمد أنه سيتخرج بعد أشهر وسألهما هل تعرفان له عروسا، فقالتا له في صوت واحد: - أبله يسرية.

وسألهن: - من أبله يسريه هذه؟

- مدرسة الرسم.. حلوة.. ومهذبة.. ورقيقة.. وأنيقة.. ونحن نحبها جدا.

- المهم أن أحبها أنا.

وعلقت جميلة قائلة: - ما هذا الكلام يا أبيه؟
- ماذا في ذلك.. هل الحب حرام؟
وسكتت الفتاتان وحارتا جوابا، مما شجع محمدًا على الاستمرار:
- المهم أن يكون حبا نظيفا وعفيفا. ألا تسمعان الست أم كلثوم وهي تقول «الحب حلاوته بالقنطار».
وعند هذه اللحظة دخلت الأم وسمعت عبارته الأخيرة فزجرت ابنها محمد قائلة:
- البنتان لا زالتا صغيرتين. لا تفتح عيونهما.
وقال محمد: - هذا اسمه تفتيح مخ لا تفتيح عيون.. هما في سن الحوار الهادئ والتوعية بحقيقة الأمور حتى لا يسمعاها من غيرنا بشكل مشوش.
وتعلق جميلة: - أنت يا أبيه تصلح لأبله يسرية جدا لأن تفكيرها مثلك تماما.
- شوقتوني لرؤية أبلة يسرية.
وردت فاطمة وهي تفتح حقيبتها المدرسية:
- هاك صورة لها معنا في فناء المدرسة.. انظر.
ويتأمل محمد الصورة ويعلق قائلا: - الصورة حلوة.. المهم الأصل.
وتقول فاطمة: - الأصل أحلى من الصورة يا أبيه وهي

متخرجة هذا العام . . يعني ذلك أنها حصلت على الثانوية معك في عام واحد .

ورد محمد : - وهل لا بد أن يكون العريس أكبر من العروسة ؟

وترد الفتاتان : - هذا ما نلاحظه دائما . . وبابا أكبر من ماما .

وترد الست سعاد : - بكثير . . كان أبوكم موظفا وأنا في الابتدائي . . أبوكم أخذني قطة مغمضة . . أخذني من الدار للنار .

وتسأل جميلة : - هل أنت نادمة على الزواج من بابا؟

- لا . . وهل هناك مثله في الدنيا؟ . . ولكنني أتساءل لو كنت أكملت تعليمي لكنت الآن دكتورة أو مهندسة . . انما هي القسمة والنصيب . . حققا أملي أنتما واحدة دكتورة والثانية مهندسة ويختم محمد الحديث قائلا : - لذلك عليهما بالاجتهاد والدرس .

وتقول جميلة : - أنا أتمنى أن أكون طبيبة .

وتقول فاطمة : - وأنا أتمنى أن أكون مهندسة .

ويقول محمد : - المهم أن تترجما رغبتكما هذه بالفعل . . يعني المذاكرة . . هيا الى المذاكرة .

-٢٦-

وعلى الفور، أسرعت الفتاتان الى حجرتهما. وبدأتا المذاكرة في حماس لا يفتر وأمهما تنتقل بين حجرتهما، وحجرة الأولاد لتوزيع أكواب اللبن والشاي والقراقيش التي ترسلها أسبوعيا الست أم طاهر مع الخبز الفلاحي وطواجن المعمر، والدجاج وخلافه من حمام وأرانب وأوز وبط. مما كان يجعل عيون طاهر أفندي تدمع شوقا لأمه وقلقا بشأن ظروفها الصحية. فهي مصابة بضغط دم مرتفع أدى الى تصلب الشرايين، فضلا عن مرض الربو الذي لازمها منذ الصغر. ورغم اهتمام طاهر أفندي منذ شب برعايتها صحيا واصطحابها الى الطبيب، الا أنها كانت لا تلتزم بتعليمات الطبيب من حيث انتظام مواعيد الدواء، والأكل خاصة ما يتعلق بتجنب الممنوعات وتجنب التعرض للبرد مما كان يحزن طاهر أفندي ويجعله يقول لها:

- «يا أمي أنا خايف عليك.. خافي على نفسك واسمعي

كلام الطبيب» .

وكانت ترد هي : - أي طبيب يا طاهر يا ابني . . الشافي هو الله .

- ونعم بالله يا أمي . . لكن لنأخذ بالاسباب .

ولا حياة لمن تنادي فقد ظلت الست أم طاهر على عدم التزامها بتعليمات الطبيب ومع ذلك ظل طاهر أفندي بعد أن انتقل الى القاهرة على التزامه تجاه أمه بارسال نفقات علاجها الى أخيه ناصح . وكان يزورها كل شهر مرة ويبقى معها من بعد ظهر الخميس حتى عصر يوم الجمعة يتجاذبان أطراف الحديث في موضوعات شتى لا تنتهي ، والأحاديث دائما ذات شجون . وهل تشبع الأم من حديث ابنها ، أو يشبع هو من حديثها . هي دائما تتذكره وتذكر حنانه وحدبه عليها ، أما هو فكان لا يمل من الحديث عنها مع زوجته وأولاده وبناته ، فهي التي شجعته على الدراسة رغم أنه بدأ الدراسة كبيرا نسبيا بعد وفاة أبيه المبكرة ، وهي التي كانت تقوم عنه بمهمة مراعاة عمل العمال في الأرض وحضور عمليات جني المحصول وتذرية الأرز والقمح حتى يتفرغ للدراسة . فلا غرو أن حالفه التوفيق ، وتذكر طاهر أفندي مرة ان أَنَسًا ذهب مع جدته الست أم طاهر لحضور جمع القطن . وكان هدف أنس هو ركوب الحمار والجمل . . ولمح أنس صبية جميلة فسأل

فكيهة زوجة «عدوى» الفلاح الذي يزرع هذه القطعة :
- بنت مَنْ هذه يا فكيهة؟
فقالت له : - سلمى ابنتي ياسي أنس . . ليجعلها الله من نسائك .
وتورد وجه الصبية وابتسم أنس لفكرة أن يكون له نساء لا امرأة واحدة كشأن أبيه ليس في حياته سوى أمه . لكن ملاحة وجه الصبية أغرته بأن يربط جلبابه من وسطه ويجمع معها كم «عبا» من القطن ، حتى أنهما سبقا الجميع في خط قطنهما وراحا يتحدثان وهما بمنأى عن الجميع لا يسمعهما أحد وكانت سلمى تسأله أسئلة ساذجة :
- كم سنة بقيت لك وتنتهي من التعليم ياسي أنس . وكم سيكون راتبك؟
ويجيبها أنس ثم يسألها : - ولماذا كل هذه الأسئلة؟
- كي أرى هل تستطيع أن تفتح بيتا في المستقبل أم لا .
ويطرب أنس لأنه وجد فتاة تهتم به وهو ما زال بعد صغيرا ، وهي فلاحة . . إلا أنها تتمتع بقدر كبير من الملاحة . وسرعان ما انتهى الخط الذي يجمعان فيه . فجلسا يستريحان وفكيهة أم سلمى ترقبهما من بعيد في رضا تام وأماني عذبة تداعب مخيلتها أن يصبح زوجها عدوى صهرا لطاهر أفندي . وتمتمت بينها وبين نفسها «قادر يا كريم أن تحقق ما

في بالي».

وحين عادت الست أم طاهر الى البيت مساء وبصحبتها أنس أخذت تروي ساعة العشاء ما كان من أمر أنس وسلمى وضحك الجميع وخاصة طاهر أفندي والست أم طاهر.

وطاهر أفندي في تذكره الدائم لأمه يشبه الجنين الذي يعيش في رحم أمه، والذي وان كان قد خرج من بطنها وعاش ثم انتقل الى القاهرة إلا انه بقي متعلقًا بها وكأن الحبل السري لا زال متصلا بينهما من السنبلاوين حتى القاهرة رغم بعد المسافة. ولا غرابة في ذلك الشعور الجميل الذي يربطهما فهو أولا وأخيرا شعور يليق بشاعر مطبوع.

نام طاهر أفندي ليلته هذه ولديه شعور غامض بأن أمه تناديه. واستيقظ في الصباح ولكن متأخرا ليجد الجميع يردون عليه تحية الصباح على نحو يوحي بأنهم يتفادون النظر اليه. وبدأ الجميع يحاولون إثناءه عن عزمه الذهاب الى العمل وطلبوا اليه أن يستريح اليوم. فساورته الوساوس ماذا حدث؟ ولكن هذا سمير أخيرا يقول له:

- أريد أن أقرأ لك سورة قرآنية لأسألك تفسيرا لبعض آياتها.

واستجاب له، وتلا عليه سورة لقمان بصوت عذب ألفه من سمير. وفي ختام السورة قال سمير في صوت مشفق:

- « الفاتحة لأمواتنا وكل أموات المسلمين. . الفاتحة لروح الست أم طاهر».

وهتف طاهر أفندي: - ماذا؟

والتفت الجميع حوله وبكت الفتيات والست سعاد وردد الجميع من خلال الدموع. . «البقاء لله يا بابا. يرحمك الله يا ستي». . وختمت الست سعاد قائلة:

- نحن جاهزون للسفر يا طاهر أفندي والحقائب في السيارة. . استأجرنا سيارتين.

كل ذلك وطاهر أفندي ذاهل شارد عما حوله غير مصدق وأخيرا سأل: - كيف عرفتم؟

وناولته الست سعاد البرقية في اشفاق قائلة: - «العمر الطويل لك».

وفرت من عين طاهر أفندي دمعة. فأسرع الى حجرته وأغلق الباب خلفه، ثم سمع الجميع نشيجا مكتوما وصوتا حبيسا يردد «يا حبيبتي يا أمي».

وأسرعت الست سعاد تطرق بابه: - افتح يا طاهر أفندي. . افتح اريدك في أمر.

وبعد لحظات خرج طاهر أفندي وقد احمرت عيناه فبادرته الست سعاد:

- ليس هذا وقت البكاء. . عليك مهام كثيرة وسفر

طويل . . وواجبات كثيرة . . ليكن الله معنا هيا بنا .

واستقل الجميع السيارتين، طاهر أفندي والست سعاد ومحمد في سيارة وسمير وأنس والفتاتان في السيارة الأخرى، واتجهت السيارتان الى السنبلاوين. وما هي الا ساعتين حتى وصلوا الى مكان المأتم وقابله صاحب محل الفراشة معزيا «البقاء كل يا بيه»، لقد نصبنا الصوان اللائق بالست أم طاهر. وشكره طاهر أفندي بايماءة ودخل الى البيت وتابع اجراءات الغسل من الخارج، بينما دلفت الست سعاد الى الداخل وهي تقرأ القرآن وتسلمت مصاغ الست أم طاهر من المغسلة وكان كاملا، فهي تعرف مصاغها قطعة قطعة، وكيف لا تعرفه وهي التي تشاركها في انتقائه. فالست أم طاهر كانت تثق في ذوق سعاد الرفيع. وكانت فهيمة الفنجرية زوجة ناصح تتابع تسليم قطع المصاغ من بعيد ولعابها يسيل. وبعد لحظات خرج جثمان الست أم طاهر من الغسل مكفنًا يفوح العطر منه الى النعش، وسارت الجنازة يتصدرها طاهر أفندي وأخوه ناصح والأستاذ علي البكري والد زوجته والأقارب والأصدقاء والجيران بل وكل معارفهم في البلد، وكان عدد المشيعين كبيرا جدا مما أذهل سمير وأنس بالذات- الذي همس في أذن سمير قائلا:

- ان لنا عزوة كبيرة جدا هنا يا سمير.

لا غرو في ذلك، فطاهر أفندي لم يقصر أبدا في واجب لأحد من أهل بلده، وكان في مقدمة المشيعين أيضا مأمور المركز، ورئيس مجلس المدينة. وكان تقليدا متبعا وقتذاك أن يسبق أحد جنود الشرطة مأمور المركز مؤديا التحية هاتفا: مندوب السيد رئيس الجمهورية. فمن المتبع أن يوفد رئيس الجمهورية مندوبا في مثل هذه المناسبات، ولكن المأمور سار الى جوار طاهر أفندي وتحين فرصة ليهمس قائلا له:

- لقد جئت بصفتي الشخصية أيضا فكلانا يعرف الآخر منذ زمن، وأنت من الرجال الذين يحبهم الانسان لحسن معاشرتهم.

وهز طاهر أفندي رأسه شاكرا واستمرت مسيرة الجنازة حتى صلى مع المصلين على أمه صلاة الظهر. ثم اتجهوا الى المقابر حيث وارى القبر جثمانها، اذاك انهمرت الدموع في صمت من عيني طاهر أفندي الذي أيقن لحظتها أنه الفراق بينهما، ولكن أراحه قول سمعه من أحد أقاربه المسنين:

- يا أخي طاهر، نحن جميعا أموات: ميت يودع ميتا.

وأراحه أيضا أنه سيلحق بها يوما ما، وأن الوشائج ستتصل بينهما من جديد. وعاد بعد تشييع جثمانها وسط جمهرة من أصدقائه تؤكد أن الحياة لم تزل تزخر بالخير، وانه بعد كل حزن يأتي فرج، وبعد كل ليل يطلع صبح جديد، والله من فوقنا صاحب الوعد والوعيد.

-٢٧-

عندما جاء الخميس الكبير أجريت القسمة بين طاهر أفندي وأخيه ناصح في أرض أمهما المرحومة الست أم طاهر، حتى الذهب الذي تركته تمت قسمته بالعدل بينهما أو قل بين زوجتيهما. ثم توجه الجميع الى المدافن فقرأوا الفاتحة واستقرأوا القرآن على روح الست أم طاهر. وفي هذه المرة كان طاهر أفندي قد رأى انه لا داعي لاستقراء القراء نظير الشطائر والبرتقال والبلح، وأن النقود اجدى بالنسبة للقراء، يتصرفون فيها على النحو الأجدى لهم. ورغم ذلك لم يسلموا من تعليق امرأة مرت بمدافنهم قالت «تقرءون عليها بالنقود وتستخسرون الشطائر والبلح والبرتقال».

آلم هذا التعليق طاهر أفندي ومن معه خاصة وأنه لم يحدث أن بخل على أمه في حياتها من ماله فهل يبخل عليها من مالها بعد موتها؟، وفرت من عينيه دمعة ألم سببها كلام المرأة، لكن فهيمة الفنجرية قالت له لأول مرة كلمة عاقلة «ان من يستمع

لكلام الناس لن يعرف الراحة أبدًا يا طاهر أفندي ». وأمن ناصح بالتبعية على كلامها.

وفي صباح الجمعة توجه طاهر أفندي وأسرته لزيارة والد زوجته الأستاذ علي البكري وسلمه توكيلا باستلام ايجار الأرض من الفلاحين وفي كل ما يتعلق بشئونه في السنبلاوين. وبعد الغداء انتهت الزيارة وسلَّم طاهر أفندي وأسرته على الأستاذ علي البكري وأسرته وقبَّلا بعضهما، وضم الاستاذ علي البكري الى صدره، وكذلك فعل الآخر.

وخرجت أسرة طاهر أفندي تسير في اتجاه موقف سيارات الأجرة المتجهة الى القاهرة، ولأول مرة تتحدث الست سعاد منذ حضورهم الى السنبلاوين بصوت مرتفع وهي تتساءل:

- ما للشوارع أصبحت ضيقة هكذا؟.. وما للبيوت وكأنها ستقع على بعضها وعلى الناس؟

وعلق طاهر أفندي:

- كل ما في الأمر انك تعودت على شوارع مصر الواسعة يا أم محمد.. والبلد لم تعد تعجبك.

- هكذا يا طاهر أفندي.. وهل أنا قليلة الأصل حتى أتبرأ من أصلي. ان السنبلاوين بلدي وفيها أهلي وناسي.

- اذًا ماذا جرى؟ الشوارع هي نفس الشوارع، والبيوت هي نفس البيوت. لم يطرأ أي تغيير. ولن تتغير. حتى بيتنا

كما هو دور واحد . . مع ان أساسه يكفي لبناء عشرة أدوار . . كان عندي أمل أن نعلي البيت .

وردت الست سعاد : - البركة في العيال . . كل واحد سيبني له شقة .

- أتظنين ان العيال سيرجعون الى البلد بعد أن عاشوا في القاهرة . . اذا كنت أنت نفسك لم تعد البلد تعجبك .

- لا يا طاهر أفندي . . الحكاية وما فيها ان بلدي هي البلد التي يكون فيها زوجي وأولادي .

- اني سأرجع ان شاء الله للبلد فور انتهاء تعليم الأولاد . . سأكون قد أحلت الى المعاش وأرجع لأموت في بلدي .

- يبعد الله عنك الشر يا طاهر أفندي .

- الموت علينا حق يا سعاد .

وسألته الست سعاد لتخرجه من جو الموت : - هل أنت نادم لانك تزوجت مني يا طاهر أفندي؟

فقال لها في حب : - وجودك الى جواري يا سعاد يجعلني لا أندم على أي شيء أبدا .

وابتسمت الست سعاد وقالت في حب : - رعاك الله يا طاهر أفندي .

وركب الجميع متجهين الى القاهرة. استغرقت الرحلة

ساعتين قضوها في تأمل المباني الجديدة التي امتدت الى مسافة طويلة على الطريق الزراعي. وسألت الست سعاد طاهر أفندي عن أرضه التي دخلت كردون البلد وأصبحت أرض بناء: كم تساوي اليوم؟. فعلق السائق وهو شاخص ببصره الى الأمام

- كثير ياست هانم.. ان المتر أصبح بالشيء الفلاني.. والناس العائدون من «السعوديةوالكويت» معهم نقود كثيرة ومنكبون على الشراء والبناء.. ان ايجار الشقق أصبح ناراً.. ارتفعت جدا بعد ان عمل أناس كثيرون في تقسيم الأراضي وكثر السماسرة.. أصبحوا أكثر من البائعين والمشترين هؤلاء السماسرة كالمنشار «طالع آكل نازل آكل».

وسألت الست سعاد في سذاجة: - كيف؟

- يأخذون من البائع ومن المشتري.. هذا أمر لا يحتاج الى فهم كثير.

وحكى السائق لطاهر أفندي عن رئيس مجلس المدينة السابق الذي كان يتاجر بتراخيص الجمعيات التعاونية لبناء المساكن.. وعن مساوئه الأخرى الكثيرة مثل حكايته مع سكرتيرته التي اغتصبها، ودفع لموظف عنده الكثير كي يتزوجها ورقاه الى مركز أعلى لا يستحقه مقابل هذه الزيجة. ولذلك لم يتركه الناس وشأنه، فكانوا يرسلون بأخباره الى كبار

المسئولين في خطابات بدون توقيع. وكانت هذه الخطابات من الكثرة بحيث لم يجد المسئولون مناصا من التحقيق فيها، ونقله الى مركز آخر أكبر في نفس المحافظة تحت ستار الترقية. وبعد شهرين أحالوه الى المعاش. وعن رئيس مجلس المدينة الجديد قال السائق انه شاب من أبناء البلد الذين تخرجوا في كلية الطب وفتح عيادة لم يكن لها زبائن بسبب عدم كفاءته وعدم انتظامه في الحضور اليها، لانشغاله في نشاط «الاتحاد الاشتراكي» الذي أتاح له فرصا كبيرة للتعرف الى كبار المسئولين. وأتاح له ثراؤه الاختلاط بهم ومعالجتهم فعينوه رئيسا لمجلس المدينة، رغم انه كان تلميذا الى عهد قريب في مدرسة البلد . أنت تعرفه ولعلك درست له يا طاهر أفندي. . «جابر السبكي» بن «فتحي السبكي».

أمن طاهر أفندي على كلامه وقال:

- نعم. . كان تلميذا من تلاميذي. . وحينما أتى في مأتم أمي عرفته.

وعلق السائق: - من هذه الناحية هو ممتاز. . لا مأتم في البلد الا ويحضره. . لكنه في الطب لا يعرف شيئا البتة. ذات مرة حدث أن مرضت بنت احدى الأسر الطيبة. . وكان عندها ألم في بطنها وشبه انتفاخ. . جاءوا به ليوقع الكشف عليها. وبعد أن خرج من حجرتها قال لهم: «مبروك. .

حامل» وسقط أبو البنت مغشيا عليه . . واستندت الأم الى الحائط . . وخرج هو في برود شديد . وسأل أهل الفتاة ابنتهم عن المجرم الذي غرر بها . وبكت البنت بكاء مرًا من آلام نفسها . . ونفت أن تكون لها علاقة بأحد . واستدعى الأب بعد أن أفاق طبيبا من كبار أطباء المنصورة وآخر من السنبلاوين وجابر السبكي حينما اشتدت الآلام بالفتاة . وأجمع الطبيبان على أن الفتاة عندها كيس دهني على بطنها متضخم وأنها بكر، مائة في المائة . وانهال أهل الفتاة ضربا بالقباقيب على جابر السبكي ومن ساعتها يمم وجهه شطر السياسة بعد أن فشل كطبيب ، وأحسن صنعا فانه لا يجيد الا الكلام . . . . يجيده الى درجة الاقناع .

كانت الست سعاد تستمع في صمت الى كلام السائق ، وافتقدت ساعتها نظلة التي تأتي لها بالأخبار وتمدها بالتفاصيل الدقيقة المسلية في مثل هذه المواضيع الشيقة والشائكة في نفس الوقت .

وبعد صمت طويل تكلم سمير . سأل السائق عن عبد البر بائع الثلج .

ورد السائق : - بطل السنبلاوين في حرب بور سعيد . . إن حكايته حكاية .

وقال سمير : - خيرا؟ .

قال السائق: - أقول لك يا سيدي.. ذات مرة كان واقفا يبيع أمام عربة الثلج وكان أمامه ربع لوح. وفجأة سمع ولدا صغيرا يسأله: هل أنت حقا بطل. جاء سؤال الولد على الجرح.. فراح يحكي له عن بطولاته حكاية وراء حكاية ونسي الثلج.. وساح الثلج وهو لا يدري. وسأله الولد في النهاية هل أخذت نيشان يا عم عبد البر؟

فرد عبد البر ضاحكا: - نيشان يا عم.. مال الخواجة راح «بلاش». وانتبه فجأة ليجد الثلج ذاب فصرخ يندب كل رأسماله، أنا من راح ماله «بلاش».. الثلج ساح. وراح يضحك ويبكي بشكل هيستيري، جعل الناس ترثي له، ونما خبر حكايته الى جابر السبكي رئيس مجلس المدينة فاستدعاه لمقابلته وعينه ساعيا في مكتبة بمجلس المدينة، يقدم التحية لضيوفه من قهوة وشاي وخلافه. وكان رئيس مجلس المدينة يباهي بأنه أحد أبطال حرب بور سعيد عام ١٩٥٦. ورغم ذلك يضعه عبد البر في مواقف محرجة أمام ضيوفه.

مرة قال أمام ضيوفه «البيه» رئيس مجلس المدينة عام ١٩٥٦ كان تلميذا صغيرا ولم يكن يطفي النور ساعة الغارة مثلما هو متبع لكن ماذا نقول وأنشد:

المجد له دايما عمدان دعامه تشيد عرش البنيان

ناس تعلى وتشقى زمان — ناس فدائية ناس شجعان
ناس بتطلع ع السقالة — وناس تتشعلق ع الجدران
وكل ما نعلى ونعلى — يركب فوق اكتافنا جبان

وكان عبد البر كثير الشدو والغناء على القنطرة في غدوه ورواحه. وذات مرة أنشد في جمع على القنطرة:

في الحرب يا مكتر هجومك وكم من معارك تشن

اصلك لا تعرف مراوغة — ولا انت عفريت ولا جن
طبعك ما فيهش الخبث — ولا في الحقوق بتلين
قصر الكلام يا صاحبي — ما نتاش من الثعابين
أصل انت فارس همام — والكلمة عندك فصل
سيف يلزمك في المعارك — وفي السلام له نصل
تعرفش ليه انته كده — أصل انته عندك أصل

لذلك غضب رئيس مجلس المدينة ونهر عبد البر الذي تساءل في براءة:

- ماذا حدث.. هل قلت شيئا أغضبه؟ ويضحك الناس من حوله، وبعد ذلك نقل عبد البر من مكتب رئيس مجلس المدينة وصار يعمل في مكتب آخر. لكن ضابط الفتوة

في المدرسة الثانوية كان يتيح لعبد البر فرصة تصدر طابور العرض بزيّه العسكري في المناسبات الوطنية، مما كان يسعد عبد البر البطل المسكين.

وما أسعد سمير هو أن عبد البر المسكين صار موظفا له راتب منتظم، يضمن له قدرًا من الاستقرار المعيشي لا بأس به.

وعند مدخل مدينة القاهرة قال لهم السائق: - حمدا لله على سلامتكم.

ودخل الى شارع شبرا حيث نزل أفراد أسرة طاهر أفندي أمام بيتهم وحاسبه طاهر أفندي وامتدح حكمته في قيادة السيارة وأجزل له الهبة، وصافحه، ودخل الى بيته. وبدأ يعتلي درجات السلم في اثر أفراد أسرته، وبدأت الست سعاد تلاحظ على زوجها أنه ينتزع ساقه وقدمه اليمنى من الأرض انتزاعا لكنها خافت أن تحدثه في ذلك فتثير الوساوس في نفسه. فانتحت بابنها محمد جانبا، وسألته الرأي في ملاحظتها وهل يلاحظ نفس ما لاحظته؟ ووافقها محمد على رأيها وأضاف أنه لا بد من استشارة طبيب متخصص.. وبالتالي لا بد أن يعرف أبوه بالأمر. فكيف السبيل الى مفاتحته، هو الذي رغم ايمانه الشديد بالله، وبأنه «لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا» يكره المرض، ويعرض عن سيرته

بل يكاد ينكره، فما باله اذا كان المرض أمرًا يتعلق به شخصيا.

فكروا في الأمر مليا عدة أيام ثم حجزوا له دون علمه، وذات يوم اقترحوا عليه أن يخرجوا للتنزه. وبعد قضاء اليوم بالخارج صحب سمير أخاه أَنَسًا وأختيّه فاطمة وجميلة عائدين الى المنزل وصحبت الست سعاد ابنها محمدًا وزوجها طاهر أفندي الى عيادة الطبيب قائلين إنهم حجزوا له وللست سعاد للاطمئنان، وإن الكشف هدية من الأبناء، وضحك طاهر أفندي وقال معلقا:

- أحضر الأولاد لكلينا تذكرتي طبيب بدلا من تذكرتي سينما.. فليجازيهم الله.

ومر الأمر بسلام على طاهر أفندي - في البداية - ودخلوا الى العيادة وكانت زاخرة بالمرضى، جلسوا حتى حان دور الاثنين، فدخلا معا وبدأ الكشف بالأم التي اتضح أنها مصابة بآلام روماتزمية بسيطة. ثم جاء دور الأب الذي كان محمد قد أعطى للطبيب ملاحظاته عنه والتذاكر الطبية القديمة لوالده والتاريخ المرضي له. ورقد طاهر أفندي في استسلام للطبيب. وقام الطبيب بالطرق على ركبتيه والضغط بيديه على مواضع في الصدر والبطن بعد أن قاس النبض وضغط الدم. وانتهى الكشف ونهض طاهر أفندي لارتداء

ملابسه وبقيت معه زوجته تساعده، بينما عاد الطبيب الى مكتبه من حجرة الكشف وفي اثره محمد، وقال له الطبيب:

- ضغط دم مرتفع أدى الى تصلب شرايين. وقدّم له التذكرة الطبية وبها قائمة الأدوية وقائمة الممنوعات من الطعام والشراب وعلى رأسها ممنوع الملح والشاي.. والدهنيات والنشويات. وطالب بأقصى درجات الالتزام في الطعام والعلاج.

وشكره محمد بايماءة من رأسه تنبئ عن ارتباكه وانشغاله الشديد الذي يصل الى حد الوجوم على والده العزيز. وسلم محمد وأبوه وأمه على الطبيب وانصرفوا.

ودعا محمد والديه الى تناول مشروب في «جروبي». وهناك تحدثوا في الأمر بأسلوب مرح خفف من وقع الكلمات على طاهر أفندي الذي بدا قوي الارادة حين حدثه محمد مداعبا:

- ما رأيك لو أدعوك على فنجان شاي بشرط أن تعدني ألا تشرب الشاي بعده بشكل قاطع.

ورد ألاب: - أنا لن أشرب حتى الشاي الذي دعوتني اليه.. أنا طول عمري قوي الارادة.

وسألت الست سعاد:

- والملح هل ستقدر عليه.. هل ستستغني عنه؟

- أنا أستطيع الاستغناء عن كل شيء يا أم محمد الا أنت.

وعلق محمد مداعبا :

- فلأقم أنا لأمشي .

واختتم الأب :

- فلنقم كلنا لنمشي .

وخرج ثلاثتهم واتجهوا بسيارة أجرة الى منزلهم في شبرا، وأحس الجميع أنهم مقبلون على مرحلة جديدة في حياتهم، تستلزم الدقة، والنظام، والالتزام، والاجتهاد كل فيما يخصه . . . الطلبة في مذاكرتهم والأم في ادارة المنزل والأب في الانتظام في أخذ العلاج والله وحده يعلم الى أي مدى سيوفقون في ذلك .

-٢٨-

القاهرة مدينة الزحام والدخان والعمل بلا طائل والجدب والضياع وكل المتناقضات وبلد كل من لا بلد له. هكذا اكتشف طاهر أفندي بعد أعوام من مقدمه اليها من السنبلاوين بلد الهدوء والهواء والخصب والغيم والخضرة والنماء. ففيها كان الخير يأتيه من كل حدب وصوب. في البيت كانت تربى الدواجن والطيور على بقايا الطعام، والحقل كان ينتج الأرز والقمح ومنه كان خزين البيت. ومن الحظيرة كان مخزون السمن والجبن والزبد والقشدة، هذا عدا الذرة والخضروات من طماطم وخيار وقثاء وباذنجان وخلافه التي كانت تأتيه من الحقل. أما عن محصول القطن فكان الفرحة بعينها في البيت خاصة يوم بيعه بعد التأكد من أن هذا أقصى سعر ممكن، يومها كان يحضر الفلاحون لكبس القطن في الاكياس المعلقة في حلق مثبت في سقف البيت، حرص طاهر أفندي على وضعه حتى في سقف البيت الجديد

عند القيام بصب السقف الخرساني المسلح. كل تلك الخيرات كانت متوفرة بالاضافة الى راتبه ذلك عدا أجر الدروس التي كان يعطيها لابناء وبنات البلد من الضعاف في مادته - رغم أن نصف الدروس تقريبا بالمجان فهو لم يكن يأخذ الا القليل من القادرين. أما الاقارب والجيران فهم أهله وجيرته وكان يرى أن هذا حقهم عليه، ومع ذلك كان طاهر أفندي في بسطة من العيش حتى جاء الى القاهرة وصار كل دخله هو راتبه وايجار الارض لا يفيان بأعبائه، خاصة وان ايجار الارض ملاليم على حد قوله في هذا الزمان وخير الارض صار للفلاحين، والدواجن والطيور انقطع الامداد بها منذ موت أمه، بعد أن سيطرت على مقدراته فهيمة الفنجرية زوجة أخيه ناصح، والتي تزعم دائما أن الدجاج لا يبيض، والأرانب أصابتها الشوطة، والحظيرة انقطع خيرها. وكان طاهر أفندي يخجل من مفاتحة ناصح في هذا الأمر وقال لنفسه إن أمر الله قد نفذ ولم يعد له غير راتبه وايجار الارض على ضآلته، ذلك ناهيك عن متاعبه مع الفلاحين في تحصيله على أقساط وبعد مماطلة. وكان عليه أن يبني سمعته في القاهرة كمدرس عرف عنه الاجتهاد في العمل والاخلاص في الشرح لتلاميذه، ذلك سبيله الوحيد لجذب من يرغب في التتلمذ على يديه في دروس منزلية، وأنه لن يدرس لتلميذ

يدرس في أحد فصوله فهو ليس لديه ما يضيف على ما شرح في الفصل، وحتى لا يحاول أحد أن يأتي بغرض أن يجامله في الدرجات، فهذا ليس طبعه. وبدأ اسمه كمدرس في القاهرة يذيع، ولكن ذلك استغرق سنوات كان المرض خلالها قد تمكن منه. وضيق أحواله المالية يحول دون المواظبة على شراء الدواء الضروري له، مما كان يزيده ضيقاً وإرهاقاً. ويزيد المرض تمكناً منه، فصار يجر قدمه اليمنى، ولاحظ الجميع كذلك أن يده اليمنى صار يحركها بصعوبة، ويكتب بها بصعوبة. وقد شغل عن صحته بالتفكير في الوصول بأسرته. . سفينته الى بر الأمان، وكل عام يمضي بطيئا ويأتي بعده عام يهتف له طاهر أفندي بينه وبين نفسه تنهيدة يقول بعدها «كلها فركة كعب يا أولاد وتتخرجوا وتريحوني».

وفعلا تخرج محمد أولا وصار مهندسا يقبض راتبه ويأخذ منه مصروفا متواضعا ويضع الباقي في يد أمه دون علم من أبيه، لكن أمه كانت تأخذ جزءا معقولا للبيت وتدخر له الباقي في مظروف خاص تضعه في دولابها الخاص، وكل شهر تقول لمحمد صار لك مبلغ كذا مدخرا. . لكن محمدًا كان يعرب عن لامبالاته بمدخراته. فقط كان يحرص على الاطمئنان على توفر دواء أبيه في البيت. فقد كان تدهور أحوال أبيه الصحية يقلقه، كما يقلق أمه، ويزيد من آلام

سمير النفسية، ويجعله يزداد انطواءً على نفسه وتعثرا في دراسته ويضاعف احساسه بالذنب من أنه بدلا من أن يكون عونا لأبيه صار عبئا عليه، رغم أنه تعدى سن الدراسة، حتى أن أختيه لحقتا به في الجامعة منذ عامين فصارت فاطمة في كلية الهندسة، وجميلة التحقت بكلية الطب. حتى أنس أصغر اخوته صار في كلية الزراعة وعما قريب يصير مهندسا زراعيا فهل من دفعة ربانية تجعله يقبل على دراسته التي يحبها. فهو الذي اختار هذه الدراسة ولا مبرر لتعثره فيها، ولا معنى لرفضه فكرة أن تكون هناك مقررات، فهو الذي اختار دراسة الادب وبالتالي يكون قد اختار مقررات هذه الدراسة. اذا فهي ليست مفروضة عليه كما صور له بعض المضللين وأوهموه بأن عليه بالاطلاع الحر، وأقنعه أخوه محمد بأنه كان حرا حين اختار الدراسة بمقرراتها وأن عليه دائما ألا ينسى أنه حر وأنه مسئول في ذات الوقت. وقال له ألست من عشاق «سارتر» وتردد دائما أن الحرية هي المسئولية؟ انك قد اخترت دراستك بارادتك فما بالك تتنصل اليوم من المسئولية تجاه الدراسة؟

واقتنع سمير وجمع طاقته المتراكمة عبر حبل الفشل والاحباط وراح يستذكر دروسه ليل نهار غير عابئ بشيء سوى أن يثبت أنه ليس أقل من بقية اخوته قدرة على تحمل

نصيبه من المسئولية .

وانتهى العام بحصول سمير على شهادة الآداب من أول عام على عكس ما كان في كل سني دراسته . فقد كان يوشك على استنفاذ مرات الرسوب .

فيا له من تحول في شخصيته عجيب ، لكن لا غرو ، فقد كان لأبيه في قلبه حب ووجيب ، وهو أراد أن يترجم حبه لأبيه الى واقع يفرحه . فقد كان أبوه قلقا بشأن مرضه بأكثر مما كان قلقا على نفسه من مرضه المتفاقم ، وفرح الجميع بنجاح سمير أكثر من نجاح أي من اخوته الآخرين حتى أنس الذي جعله عشقه للأرض بالدفع الذاتي كما يقول هو عن نفسه أنه فلاح بالسليقة ، ولذلك دخل كلية الفلاحين كما يسميها ، وانه ينوي أن يعود الى السنبلاوين ليزرع أرضهم ويربي البهائم في الحظيرة وكذلك الدواجن والأرانب والحمام . . ليعود الخير كما كان .

ويبتسم طاهر أفندي ويتساءل : - ترى . . هل ترجع الأيام؟ . . أيام الأرض والزرع والمحراث والساقية والفرقلة . . والبهائم؟ . يا هناء من يعيش . . ولكن كيف والأرض مؤجرة للفلاحين والحيازة باسمهم؟ لكنك يا أنس لك من عرق جدك الذي روى الأرض ، وفاحت رائحتها به خير دافع على الاستحواذ عليها ، كما لك حق الملكية خير سند على ذلك ،

فهل يجيء ذلك اليوم؟

وتلمس ابنتاه كتفيه في حنان وتقولان:

- انشاء الله تعيش وتشوف أولاد أولادك.

ويجيب طاهر أفندي: - أريد أن أشوفكن أولا في بيوت أزواجكن وأطمئن عليكم.

وترفع الست سعاد يديها الى السماء:

- ربنا قادر على منحك العمر الطويل يا طاهر أفندي.. آمين يا رب العالمين.

ويفجر سمير مفاجأة فيقول: - غدا الساعة السابعة مساءً موعدك مع الطبيب.. لقد حجزت لك.

وقال طاهر أفندي: - من مصروفك.. ألا تنتظر حتى تشتغل وتقبض ثم تذهب لطبيبك أولا.

ويجيب سمير:

- ولماذا الاحراج؟.. انني حجزت لك من نقود قصيدة جديدة لي نشرتها أخيرا، هل نسيت أني شاعر؟ القصيدة اسمها «الحب ارادة». ولقد حجزت لنفسي أيضا عند الطبيب مع أنني قد توصلت الى أسلوب علاج نفسي.. انه العمل وبايمان، والاثنان لا ينفصلان.

ويقول طاهر أفندي:

- والحب يا بني الذي أوصى به الطبيب؟

-ومن قال لك إني لا أعرف الحب . . ان من يعرف طاهر أفندي ويعيش في كنفه انما يعيش في ظل الحب كله، ذلك الحب الذي جعلني أعمل واستذكر دروسي وأنجح، وفي نفس الوقت أكتب شعرا، أما فيما يتعلق بالوظيفة فهي مضمونة . . سأكلف مدرسا، وهذا حتمي .

- التدريس مرة أخرى

- ما لها مهنة التدريس يا أبي . . انها مهنة نبيلة . . لها رسالة . . أشرف رسالة في عصرنا .

-نعم ولكني أخاف عليك من أمراض المهنة . . أخاف عليك مما أنا فيه .

- لا تخف يا طاهر أفندي . . كل شيء بارادة الله .

-٢٩-

ويكلف سمير مدرسا ويعفى من الجندية لعيب خلقي في قدميه، ويعين في دمنهور مدرسا. ويتصل أبوه تلفونيا بثروت بك، مستشار مادة اللغة العربية، وصديقه، ويستحلفه- بحق الصداقة- أن يعدل تعيين ابنه ليكون عمله في القاهرة حيث أجهزة الثقافة التي تدخل اهتماماته داخل نطاقها وليكون الى جواره في شيخوخته هذه. ويستجيب ثروت بك لرجاء صديقه الذي أفنى عمره في خدمة التعليم بل ويحضر لزيارته . وفي أثناء هذه الزيارة وبحسبة طويلة يقنعه أن الاستمرار في العمل حتى نهاية مدة الخدمة ليس مجديا لكليهما، لذا ينصحه بما نصح به نفسه ألا وهو تسوية مدة خدمته خاصة وان معاش كليهما سيكون أكبر من الراتب. واقتنع الأولاد بوجهة نظر ثروت بك وظلوا يلحون على أبيهم الذي كان قد عقل المسألة، ومع نهاية العام سوّى طاهر أفندي حالته، وأحيل الى التقاعد. وعند تسلمه

قرار الاحالة دمعت عيناه عندما قرأ عبارة تقليدية في القرار تقول «يرفع اسمه من سجل العاملين بالوزارة اعتبارا من اليوم، وعلى جهات الاختصاص مراعاة ذلك كل فيما يخصه» لذا لم يلبث طاهر أفندي أن أجهش بالبكاء، وأسرع الجميع يخففون عنه ويقولون:

- ما بالك يا بابا؟

- أبدا.. مشهد الغروب حزين.

- غروب.. أي غروب.. نحن في رابعة النهار.

- انه غروب زوجك يا سعاد.

قالت البنتان: - بعد الشر عنك يا بابا.

أسرعت الست سعاد تقول: - ليمتعك الله بالعمر الطويل.

وأمسك محمد بخيط الكلام:

- هذه فرصة سانحة لتوثيق صلتك بالله، وبالناس وبالأسرة.

يتساءل طاهر أفندي وهو شبه ذاهل عمن حوله:

- كيف وصلتي لم تنقطع بالله، ولا بالناس، ولا بالأسرة؟

قال محمد: - أقم صلات من نوع جديد.

- هل أجلس على المقاهي على آخر الزمن أم ألعب الورق... ولد وبنت وشايب؟

وتداعبه فاطمة قائلة: - فكرة... أن تلعب الورق يا بابا.
- لم ألعبه وأنا ولد فهل ألعبه وأنا «شا يب» يا بنت.
وتقول الست سعاد: - سيسنح لك الوقت بأداء كل فرض في موعده، وسماع الراديو، ومشاهدة التلفزيون، وتتجاذب أطراف الحديث معي،... وتلحق بي في المطبخ لنغسل الأطباق معا، فننتهي منها سريعا ونهرع الى حجرتنا، فالجو شتوي كما ترى يغري بالدفء.
- فليجزيك الله يا أم محمد.. هل يرجع الزمن الى الوراء؟
- نعم يرجع.. ولِمَ لا يرجع.. هل كبرنا؟
- هل سنضحك على بعضنا يا سعاد.. طبعا كبرنا.
- ان الشيب عرف طريقه اليك وحدك..
ويمد طاهر أفندي يده ليربت على كتفها في حب لكنها تتظاهر بالغضب وتنحّي يده في دلال قائلة:
- لا تحدثني بعد الآن يا طاهر أفندي.. تريد أن تكبرني قبل الأوان.
ويضحك الجميع. ويقول طاهر أفندي:
- ما زلت خفيفة الظل يا سعاد.
وتنجلي الهموم- وقتيا- عن طاهر أفندي، ويتفانى جميع

أفراد أسرته في خدمته وتجاذب أطراف الحديث معه حتى يساعدوه على قضاء اليوم الطويل . . وتتكرر القصة كل يوم ، لكن كل يوم يتمكن المرض منه وتزداد خدمته صعوبة ، فتصلب الشرايين يزحف على كيانه تدريجيا وببطء من أخمص القدمين حتى قمة الرأس ، دائما يتقدم ويزداد تمكنا منه كل يوم وقصارى جهد الأطباء ان يعرقلوا تقدم المرض اللعين ، ويتمكن المرض كل يوم من طاهر أفندي أكثر من ذي قبل دون أن يستطيع له دفعا، وهو يعي طبيعة المرض فهو الحصيف الذي لا تنطلي عليه عبارات الأطباء المشجعة أو الألفاظ المطمئنة التي تبثها اياه زوجته وابنتاه وأبناؤه .

- ٣٠ -

تخرجت فاطمة من كلية الهندسة، وجميلة من كلية الطب. ساعدهما اصرارهما على النجاح المتواصل، وتشجيع أمهما لهما بأن فرغتهما طيلة الوقت للاستذكار فلم تطلبهما لمساعدتها في أعمال البيت، فقط كانتا تتطوعان لمساعدتها كلما ملتا المذاكرة وعنّ لهما أن يحدثاها في شيء مما يداعب خيالهما في هذه السن فكانت لا تبخل عليهما بالنصيحة.

عند ابداء رغبات التعيين في تنسيق الوزارة أصابت الحيرة كلا من جميلة وفاطمة خاصة وان المسئولين أخبروا الجميع أن القاهرة مدينة مغلقة، فطلبا اعطاءهما مهلة لمشاورة الأسرة حتى اليوم التالي.

كانت جميلة قد قضت مدة الامتياز بمستشفى القصر العيني حيث تعرفت بطبيب امتياز زميل لها واستحوذت عليها شخصيته الطيبة، وطبيعته المرحة، ونزعته المتدينة. وحين أبدى رغبته في التعرف الى الأسرة استأذنت أباها في

دعوته لمقابلته هو واخوتها، ورحب أبوها بذلك، فتصرفها شاهد على استقامة مسلكها. وكان من الطبيعي أن يشجعها أبوها على هذه الاستقامة، أما فاطمة فلم تكن قد ارتبطت بعد بأحد، لذا فهي تعيش أجمل مرحلة في عمرها.. مرحلة انتظار النصيب.. الزوج الحبيب، فمتى قدومه يحث الخطى كدقات قلبها تحس وقع خطاه في الوجيب.

تشاورت جميلة وفاطمة مع أبيهما وأمهما واخوتهما في أمر تعيينهما في ضوء واقع يقول إن القاهرة مدينة مغلقة وأن لهما ثلاث رغبات تلبى على التوالي حسب الظروف المتاحة.

قال محمد: -أقرب المحافظات الى القاهرة بحيث تسافران كل يوم.. القليوبية أو المنوفية أو الجيزة.

وقالت الأم: - وهل تسافر بنت وتزاحم في المواصلات؟

- القليوبية يمكن أن تكون في شبرا الخيمة.. وفي المنوفية مدن كثيرة قريبة من القاهرة.. والجيزة جزء من القاهرة.

وسكت الجميع طويلا وبانت عليهم الحيرة. وفجأة وبعد صمت طويل وفي اشراقة من اشراقات طاهر أفندي قال: - ما رأيكم في السنبلاوين؟

وهتفت الأم في دهشة:

- السنبلاوين مرة أخرى. أعرف أن روحك في السنبلاوين. ولكن مع من يقمن. انهن بنات؟

- نعود الى هناك للاقامة معهما .
- نعود الى السنبلاوين مرة أخرى .
قال طاهر أفندي :
انك تذكرينني بالناس أول أن قامت الوحدة بين مصر وسورية قالوا «أيعقل أن يتغير اسم مصر بانضمامها الى سورية ليصبح الاسم الذي يضمهما «الجمهورية العربية المتحدة» . وحين حدث الانفصال وعاد الاسم القديم مصر عاد الناس يتساءلون في دهشة «هل يعقل أن نتخلى عن اسم الجمهورية العربية المتحدة ونعود لنكون مصر» .
وعلق سمير :
- أنت تعرف قانون التعود يا بابا .
- بالفعل يا بني ، التعود يحكم الانسان مع أن «خير عادة ألا يكون للانسان عادة» .
وسكت طاهر أفندي : وتركنا السنبلاوين . . لماذا؟
أجاب محمد : - لأن تعليمنا الجامعي كان في القاهرة .
قال الأب : - وسنرجع السنبلاوين لأن الغرض من وجودنا في القاهرة قد تم . . كلكم تعلمتم والبنات يمكن تعيينهن في السنبلاوين ، وأنس يحب الأرض ويريد الرجوع لزراعة الأرض ، أما أنت وسمير فلكما غرام بالقاهرة وشغلكما فيها ، رغم أن سميرا يمكن أن يكون مدرسا في البلد ويمكن

أن يراسل الصحف والمجلات القاهرية من السنبلاوين، ولعل الله يفتح عليه ويصدر مجلة في السنبلاوين. . أليست فكرة يا سمير. ويجيب سمير: ليس قبل أن أكون اسما يليق بصدارة مجلة فهذا غير يسير، لكن الفكرة واردة وجديرة بالمناقشة.

وعاد طاهر أفندي ليناقش مشكلة جميلة وفاطمة، فطلب الى جميلة أن تدعو الدكتور «أحمد» لمناقشة الفكرة معه، وحضر الزوج المرتقب وسأله طاهر أفندي قائلا:

- هل لديك مانع - ما دمت ستضطر لقبول التعيين خارج القاهرة - أن تكون السنبلاوين رغبتك وبذلك نكون قد تغلبنا على مشكلة السكن فلنا شقتان هناك. . تسكنان احداهما ونسكن نحن الأخرى.

ويجيب الدكتور أحمد:

- والله انها لفكرة طيبة، وسر الجميع لهذه الموافقة، وأقدمت جميلة وفاطمة والدكتور أحمد على ملء الرغبات في اليوم التالي وكانت الرغبات الثلاث لكل منهم كالتالي على التوالي:

السنبلاوين. . السنبلاوين. . السنبلاوين.

-٣١-

قبل أن تصل قرارات التعيين كانت الست سعاد قد سافرت الى السنبلاوين لاعداد البيت للظروف الجديدة وشاركتها نظلة بنشاط ووزعت الزغاريد في جنبات البيت. فهي لا تصدق أن جميلة صارت طبيبة وفاطمة مهندسة. فما أسرع مرور الأيام. وعادت الست سعاد بعد يومين تقص فرحة أهل البلد بعودتهم، عادت لتجد قرارات التعيين قد وصلت لتحقق رغبتهم التي كانوا واثقين منها. وكذلك وصل قرار تعيين الدكتور أحمد مع جميلة في مستشفى السنبلاوين. والمهندسة فاطمة في هندسة ري السنبلاوين، وكلاهما على نفس الطريق الذي يربط بين السنبلاوين و«طماي الزهايرة» مسقط رأس قمة الغناء العربي، والملعب الذي درجت فيه طفولتها. فهل يعود الغناء الى السنبلاوين بحقولها الغناء، كما عادت أسرة طاهر أفندي الى أحضان الأحبة والأهل والجيران والأصدقاء، ولم لا وقد قرر طاهر أفندي أن يكون

حفل عقد قران الدكتور أحمد وابنته جميلة بعد أسبوع من عودتهم حتى يكون بمثابة اعلان عملي عن عودتهم الى الأصل والجذور.

وحضر أهل أحمد وأصدقاؤه لحضور الحفل وقضوا يومين في ضيافة طاهر أفندي و أسرته، ولم يقصر أي من الأولاد محمد وسمير في الوقوف الى جانب والدهم في هذا الفرح الذي استوجب الكثير من النفقات، حتى أنس شارك أخته فرحتها بشراء أشياء صغيرة كانت قد أغفلتها لوجود ما هو أهم منها، ولقلة النقود في يدهم لذا لم تفتقد ملاحظة أن أخته كانت ترغب في هذه الأشياء، فاشتراها لها من مدخراته القليلة.

ومضت المناسبة بسلام، وأقام أحمد وفاطمة في احدى الشقتين وطاهر أفندي وأسرته في الشقة الأخرى وعاد أنس الى القاهرة ليعيش مع أخويه محمد وسمير حتى يتم آخر عام دراسي له في كلية الزراعة. وثابر على المذاكرة ليل نهار في عزم أكيد على النجاح ومن بعده العودة الى البلد كي يزرع أرضهم. كذلك واصل سمير كتابة الأشعار ونشرها في الصحف والمجلات وكانت تنضخ بالحب والأمل، وذاع صيته كشاعر يحمل هموم وطنه بين جنبيه، وكذا هموم الشباب وما هم فيه من حيرة وعذاب بسبب عدم معرفتهم لحقيقة ما يريدون، وإن عرفوه فهم لا يعرفون كيف السبيل اليه، ذلك

ناهيك عن افتقادهم القدوة وجهلهم حقيقة أنه لا بد من الأخذ بالأسباب في كل شيء حتى تتبدد الحيرة. وينتهي ما هم فيه من عذاب ولكن كيف والكبار يتخبطون في قراراتهم وتصريحاتهم ولا يحسبون العواقب التي يمكن أن تؤدي اليها تماما، كما حدث بعد اغلاق مضيق تيران عام ١٩٦٧ وحشد جنود الاحتياط من الفلاحين بجلاليبهم في سيناء، وكانوا قد نسوا استخدامات السلاح التي كان لا بد من استدعائهم من حين لآخر ليتلقوا تدريبات جديدة عليها وعلى ما استحدث من أسلحة. وكان المثقفون في القاهرة مشغولين بالتنافس على المناصب القيادية في مجالس الادارة بالصحف والمجلات، وأساتذة الجامعات مشغولين بكتابة التقارير والكيد لبعضهم البعض، والامعات منهم يتحسسون اتجاه الريح كي يحافظوا على مصالحهم ووجودهم وسط هذا الجو كله.

وبينما طلاب الجامعة يؤدون امتحاناتهم جاء صباح ٥ يونيو الحزين فدوت طلقات في أول النهار، وحومت طائرات ألقت حمولتها من القنابل خيم الصمت بعدها. ومضى الليل وئيدا في اثر النهار ولم يعد الناس يعرفون حقيقة ما انتهى اليه الأمر. استمر ذلك أياما اشتعل خلالها حماس الشباب المخلص في القاهرة والأقاليم حيث سارع من استدعي منهم للجندية الى الالتحاق بوحدته كما فعل محمد طاهر المصري،

ومن لم يستدعَ منهم سارع للالتحاق بكتائب المقاومة في مقر عملهم أو مكـاتـب الاتحاد الاشتراكي . ولم يفت المتقـاعسين ممن سبق تجنيـدهـم وتم استـدعـاؤهم الالتحـاق بـوحـدات الجيش أن يلحقوا أنفسهم بكتائب المقاومة بالاتحاد الاشتراكي متجاهلين استدعاء الجيش ، بعد أن صارحـوا محاسبيهم أنهم يريـدون أن يتـواروا خلف لافتـة المقـاومـة ، حتى لا يلحقـوا بالجيش وسيتذرعون بأنهم لم يعلموا باستـدعـاء الجيش لهم ، لأنهم كانوا قد التحقوا بفصائل المقاومة .

لكن مشاعـر التفـاول والحماس التي اشعلت جـذوتها بين معظم الشباب - والصغـار منهم بـالـذات - طلبـة المدارس والجامعات ، ذلك الحماس الذي انتهى وفتر وخبا مع مقدم ٩ يونيو حيث أعلن أن نكسة قد حدثت وسراجا قـد خبـا . . . وفارسا قد كبـا . . . ورايـة تـوشك على السقـوط . . . والكل يتساءل عمن يلتقطها ويرفعها من جديد . وهاجت وماجت مدن الجمهورية كلها بالغضب وخـرجت مظـاهـرات في كل أنحاء الجمهورية في الريف والحضر وغنى في الطـريق عـابـر سبيل أبله «اللي شبكنا يخلصنا» .

في السنبلاوين كـان الحماس في أوج عنفـوانـه . والغضب الأعمى جعل الفـلاحين ينقضـون على شـاب أحمر الـوجـه أصفر الشعر يـرتـدي الـزي الكـاكي ويحمل في يـده خنجرا

مسنونا ويرطن بلغة **لا يعرفونها**، فانقضوا عليه في جنون الغضب وأوسعوه ضربا **بالعصي** حتى مات، وتوافد الرجال والنساء ليشاهدوا جندي العدو الذي قتل، والذي قيل إنه مظلي. وفجأة دوت صرخة امرأة وسط الزحام «ابني.. قتلوه.. يا حبيبي يا بني.» وذهل الناس حين قالت انه ليس عدوا وانما هو ابنها الأصم الأبكم الملحق بمدرسة داخلية للصم والبكم في المنصورة وصمم أن يخرج ليشارك الناس اصرارهم على تخطي الهزيمة وانتهى هذه النهاية الحزينة.

وردد طاهر أفندي بينه وبين نفسه - مؤمنا على رأي الشاعر في الأغنية التي صدرت عن المذياع لتعكس مشاعر العامة - «وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها.. عدا نهار مقدرش يدفع مهرها».

-٣٢-

حطت جبال الهزيمة والمرض بكل أثقالها على أكتاف طاهر أفندي وصدره، وثقل لسانه حتى لم يعد يعرف كيف يترنم بقصيدة أراد أن يشارك بها. . . وهي قصارى ما يمكن أن يشارك به من جهد في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها بلاده. واستحال النوم عليه ليل نهار: في النهار كان يقلقه من الشارع كثرة ما يسمعه من شجار في الشوارع على غير العادة وأغاني هابطة كأنها ألفاظ بذيئة ونابية يغنيها الاولاد في غدوهم ورواحهم. وفي الليل كان الحزن والمرض يجثمان على أنفاسه لذا كان الليل يمر وئيدًا. ورغم تناوله المنوم يظل مسهدا حتى أنه كان يردد بينه وبين نفسه قول الشاعر الجاهلي:

فيا لك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وقبل مطلع الفجر يروح طاهر أفندي في اغفاءة خفيفة

يداهمه خلالها القلق والوساوس ويختلط العام بالخاص، والحابل بالنابل، ويجثم على أنفاسه كابوس استغاث منه بأن نادى أباه وأمه الراحلين بصوت عال.. الكابوس يخنقه. لم ينقذه منه سوى صوت المؤذن لصلاة الفجر فينهض ويتوضأ.

ثم - من الاعياء والمرض - يصلي على كرسي. بعدها يتلو بصوت عال سورًا من القرآن يختمها بآية الكرسي والمعوذتين والسبع آيات المنجيات ويظل حتى يصحو الجميع. واليوم طلب أن يستدعوا له الشيخ «علي أبو اسماعيل» الذي جاء مهرولا وعلى عجل، فلم يحدث أن استدعاه طاهر أفندي في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، وقص عليه طاهر أفندي ما استحال عليه أن يتممه وتساءل أهو حلم.. أهو رؤيا.. أم كابوس. فقد رأى فيما يرى النائم أنه قد تقوضت أركان بيته الحديث البناء عليه هو وأبناؤه وظلوا بين الموت والحياة وما من منقذ أو اسعاف. وظل الجميع يحاول النجاة من تحت الأنقاض وقتا طويلا خيل اليه أنه سنين وكأنهم كانوا تحت سابع أرض. وحين وصلوا الى سطح الأرض رأى الناس تتفرج وكأنهم لا يعرفونه وكأنه ليس منهم وليسوا منه، فما من أحد حاول أن يأخذ بيده أو بيد أحد أبنائه، كأنه ليس طاهر أفندي المصري الذي ظل طيلة عمره يشارك الجميع أفراحهم

وأتراحهم، وأحزنه أن أحدا لم يعزم عليه بكوب شاي أو شربة ماء بعد هذا المجهود الكبير الذي بذله حتى وصل الى سطح الأرض، كذلك لم يعرض عليه أحد ايواءه مؤقتا هو وأولاده حتى يدبر مكانا، وأنه شرع في البناء هو وأولاده حتى قبل التقاط الأنفاس ولم يعرض عليهم أحد من المساعدات الا ما هو مشروط. فحز ذلك في نفسه. ولم ينقذه من استمرار ما هو فيه الا صوت المؤذن، فقرأ التشهد وحمد الله أن ذلك كان مجرد حلم أو رؤيا أو كابوس.. وعجب لأمر استغاثته بأبيه وبأمه.. وألقى على الشيخ علي أبو اسماعيل هذا التساؤل فبادره الشيخ بسؤال:

- لعلك كنت جنبا؟

قال: - لا.

قال الشيخ: - هي رؤيا ما دامت أهلت مع حلول الفجر، والشاهد أنها رؤيا تتأرجح بين الخاص والعام فربما كانت كارثة شخصية تتحمل أعباءها وحدك لا يقف الى جوارك سوى أبنائك، أو هم من هموم الوطن في الظروف الراهنة التي لم تجد فيها ممن كانوا يدعون صداقتنا أحدًا وتحولوا الى عدو أو شامت.

وقال طاهر أفندي ردد ورائي:

- اللهم اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجزني من

الشيطان.

اللهم لا تدع لنا ذنبا الا غفرته، ولا كربا الا فرجته.

أستغفر الله العظيم، رب العرش العظيم، من كل ذنب عظيم، علمته، وما لم أعلمه.

سبحان الله العظيم، والحمد لله، ولا اله الا الله والله أكبر.

وختم كلامه قبل أن يستأذن:

- ردد ذلك دائما في غدوك ورواحك حتى يزيح الله عنك ما أنت فيه أو تخشاه أو ما نخشاه، ولا اله الا الله والسلام عليكم.

ومشى الشيخ علي أبو اسماعيل مخلفا وراءه طاهر أفندي في حيرة من أمره رغم كل ما قال، واستدعى طاهر أفندي المقاول الذي بنى له البيت وطلب اليه عمل مجسات للبناء وقوة تحمله. فأكد له أن البيت متين جدا ويحتمل عشرة أدوار بعد كل السنوات التي مضت. وخطر للرجل أن يسأل طاهر أفندي سبب كل هذا القلق ففاجأ الرجل بأن قص عليه الرؤيا التي رآها في المنام وأقلقته.

فضحك الرجل وهو يقول: - الله يجازيك يا طاهر أفندي. أتفل على يسارك وقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، وربنا معك

والسلام عليكم .

حدث طاهر أفندي أفراد أسرته وكانوا جميعا عنده في البلد في ذلك اليوم - حدثهم برؤياه وصارحهم بقلقه بل وجزعه أيضا على ما شهده من مصيرهم ومصير البيت . وفجأة قال سمير في استهتار:

- انفض عن نفسك كل هذه الوساوس والهموم وبع الأرض والبيت ولنعد للسكن في القاهرة ولنعمل مشروعا استثماريا كبيرا يدر الكثير من الدخل على الأسرة . وتذرع سمير بأن الأرض ايجارها ميت لا يعود عليهم بشيء يذكر، والبيت ليست هناك نقود تكفي لتعليته، وأساساته وبناؤه قوي، ولذلك يمكن أن يباع بمبلغ كبير. وأضاف يقول إنهم تعودوا الحياة الحلوة النظيفة في القاهرة .

ونهره طاهر أفندي قائلا :

- الأرض والبيت لن يباعا طالما أنا على وجه الأرض . . لما أموت اعملوا فيهما ما ترون . أخرس الجميع ومن كان عنده كلمة لمها وسكت . وحاولت الست سعاد التخفيف من حدة الموقف والتوتر فقالت : - فعلا الأرض ايجارها ضعيف ولا أمل في تعلية البيت بعد غلاء تكاليف البناء وثقل ما علينا من أعباء وسمير يقصد المصلحة .

وصرخ طاهر أفندي :

- سعاد هل تريدين أن يمشي خلفي صبية البلد يهللون ويقولون طاهر باع أرضه . . أرضي عرضي لن أبيع البيت ولا الغيط . . لن أبيع طالما كنت على وجه الأرض . . هل تفهمون . . بعد أن أموت افعلوا ما ترون قال طاهر أفندي ذلك وهو جالس على سريره وما ان انتهى من كلمته الأخيرة حتى زاد عليه الضغط وتصلب الشرايين . فأمسك برأسه بكلتا يديه وبكى بكاءً حارا مريرا . وأطرق سمير في خجل ثم انسحب لا يدري ماذا يفعل ليصفح عنه أبوه . والتف الباقون حول الأب مخففين عنه ، ومحاولين التماس العذر لسمير لأنه لا يعرف ما يعنيه البيت والأرض معه .

وتحدث طاهر أفندي بعد أن خف انفعاله فشرح موقفه قائلا :

- حتى الأرض لن يقبل مشتر على شرائها طالما فيها فلاح ، والأرض هي كل شيء بالنسبة لي ، ففيها عرق الجدود ولها غلاوة الوليد . كما أن البيت لن يشتريه أحد طالما كنا نشغله ، فالبيت يلمنا وبيعه يعني أن نصبح مشردين بلا مأوى ، هل فهمتم أم أنكم لن تفهموا أبدا ، كانت أمنيتي أن يعلو البيت ليكون خمسة طوابق وان تعضوا عليه هو والأرض بالنواجذ ، والأرض كما يقولون قيمتها فيها .

وسكت الجميع ، لكن لم يبد عليهم ما يوحي بأنهم فهموا

أو اقتنعوا، كان كل ما يهمهم هو أن يجنبوه الانفعال حتى لا تزداد حالته سوءًا. وبعد قليل راح طاهر أفندي في اغفاءة قصيرة استيقظ بعدها وبقي صامتا وقد سيطرت عليه الكآبة، فازداد قلق أبنائه وجاءوا له بأشهر طبيب في البلد واطلع الطبيب على تاريخه المرضي ثم قام بالكشف عليه كشفا دقيقا أشار بعده بأن الدواء كما هو، وطمأنهم رغم أن وجهه لم يكن ينبئ بالطمانينة. وحين سألوه عن تعليماته فيما يتعلق بالطعام قال لهم إنه يمكن أن يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه حتى الملح والشاي اللذين كانا محرمين من سنين.

قال سمير: - أهذا يعقل يا دكتور؟

فأجاب الطبيب في غموض:

- كل شيء معقول.

وابتسم الأب في رضا بعد أن نقل اليه أهله ما سمعوه من كلام الطبيب، وطلب كوبا من الشاي راح يرشفه بصوت عال ينبئ بالاستمتاع، وطلب لقمة وقليلا من الملح وراح يغمر اللقمة في الملح ويأكل وقد كسا وجهه شعور بالاقتناع شديد أغفى بعده حتى المساء. وحين استيقظ انتابه احساس بالقوة عظيم فحمل كرسيا ثقيلا من كراسي المائدة وصعد الدرج الى سطح البيت وهو الذي لم يكن ليستطتع أن يمشي دون شخص يسنده مما أثار دهشة أهله. راح يتنقل فوق

سطح البيت ويوزع النظرات من حـول البيت على الأرض والناس والبيوت المجاورة في كل ارجاء البلـد. واستبشر ذووه خيرا دون أن تزول دهشتهم، وحين انتهى بالطواف في أرجـاء سطح البيت عاد يحمل الكرسي ويهبط الدرج يملأه احساس بـالقـوة والفتـوة زاخـر، تسـاءل في نفســه «هل عــدت الى شبابي؟». وعندما انتهى من هبوط الدرج دخل الى حجرتـه، وطلب عنقود عنب. أكله بشهية عظيمة ومسح فمه بمنشفـة ثم قـال انـه سينـام وانهم أيضـا بـوسعهم الخلــود الى النــوم والراحة.

وسأله سمير مترددا: - ألا تريد أي شيء يا بابا؟

فرد طاهر أفندي في اقتضاب وقد علت وجهـه عـلامـات الرضا وارتسمت بسمة على شفتيه:

- سلامتك يا بني.

-٣٣-

وعجب الجميع في الصباح من أن ينام أبوهم كل هذا النوم دون أن يطلب أي مطلب، هو الذي من عاداته منذ مرضه أن يصرخ كل دقيقة . . . أريد النهوض . . أريد الجلوس . . أريد أن أمشي . . أريد أن أنام .

لكن القلق استبد بهم حين أصبحت الساعة التاسعة صباحا دون أن يستيقظ، هو الذي لم يتأخر طوال حياته في النوم بعد الساعة السابعة صباحا . واتصلوا بالدكتور أحمد واستدعوه للقدوم على ألا يخطر جميلة حتى لا تقلق . وقدم الدكتور أحمد فجس نبض طاهر أفندي وفي اشارة بليغة سحب الغطاء على وجهه ومسح دمعة حقيقية انحدرت على خده وخرج في صمت وهم يسألونه سؤالا يخشون سماع اجابة عليه، لكن الاجابة كانت شلالا من الدمع في عيون الدكتور أحمد وقال :

- البقاء لله .

وانخرط الجميع في البكاء. وبعد قليل خرج الدكتور أحمد ليحضر زوجته جميلة من المستشفى، وبسرعة البرق انتشر خبر وفاة طاهر أفندي في كل أنحاء السنبلاوين، وأخطر الأقارب في كل البلدان المجاورة تلفونيا. وكانت جنازة مهيبة ضمت أعيان السنبلاوين، ورئيس مجلس المدينة ومأمور المركز وقدامى المعلمين والشباب منهم الذين كانوا تلاميذ له يوما ما والأهل والأقارب. وغربت شمس ووري جثمان، وبعد صلاة العشاء كانت السهرة في الصوان وصوت المقرئ يشنف الآذان الى أن ختم المقرئ «بسورة الرحمن». فانصرف جميع المعزين، واجتمع الأهل داخل البيت وخيم صمت ران على الجميع احتراما لفجيعة الست سعاد التي جلس الى جوارها والدها الأستاذ علي البكري معزيا ومخففا، ثم نصحها بمحاولة النوم، وأنهى المجلس بأن قال داعيا للانصراف حتى يستريح أهل البيت:

- شكرًا للجميع.. هذا حال الدنيا.. كل من عليها فان وسبحان من له الدوام.

فهب الجميع مسلمين منصرفين.

-٣٤-

بادر الأبناء الذكور بعمل اعلام الوراثة واقترحت الأم أن يكون الأرث على المشاع في البيت والغيط. وكان لها ما شاءت، ولم يدرك الأبناء ما المغزى من أصرار الأم أن تكون الأرض والبيت على المشاع. وحام حول الأبناء أولاد أبو الفتوح بركة الذي سبق أن اشترى بيت أم السعد وما حوله من أجل طلمبة الجاز الوهمية - وهم أخطر عليهم من الأعداء الألداء لأنهم يتخذون مظهر الأصدقاء - واقترحوا عليهم العودة الى القاهرة بعد بيع الأرض والبيت لهم، والدخول في مشروعات الاستثمار. ووجد اقتراحهم صدى في نفس جميع الأبناء الا أنس. ففاتحوا أمهم وبدأ محمد قائلاً:

- أنا مهندس أقيم بالقاهرة ولا أعرف في الزرع ولا الحرث، وريع الأرض قليل لا يستحق عناء السفر لتحصيله.

وقال سمير: - وأنا شاعر تتملكني حيرة عروضية بين

القديم ذي الشطرين والشعر الحديث الذي يعتمد على وحدة التفعيلة : - مفاعلة مفاعلة فعول . . مفاعلة مفاعلة فعول

وقالت جميلة وفاطمة : - وكلانا نرى ما تراه أمنا .

وقال أنس : - أما أنا فمهندس زراعي وفلاح بالفطرة ، والأرض والبيت في ناظري يعادلان الدنيا وما فيها ، ففيهما مستقبلي ، بل مستقبلنا كلنا ، وفيهما عرق أجدادي .

وختمت الأم قائلة وقد بدت سحنتها وعيناها تكتسبان بملامح وجه طاهر أفندي :

- كفى شجارا . . انت رجل يا أنس من صلب رجل . لذا أرى أن أباك قد أنجب ، ومن أنجب لم يمت والأرض لن تباع .

قال محمد : - لماذا يا أمي وقد كنت تحبذين رأينا يوم عرضنا الأمر على أبي رحمه الله؟

قالت الست سعاد :

- نعم كان ذلك رأيي ولكن الى أن رحل ، كانت رغبته هي الحفاظ على البيت والأرض ، بل وعقيدته ورحل وصارت رغبته رغبتي وعقيدته عقيدتي ، وهذا أقيم ما ورثت عنه ، وستستمر ارادته نافذة باذن الله . . لن أفرط في البيت ولا في الغيط .

قال سمير في غضب : - سأبيع نصيبي .

ردت الأم قائلة : - افعل ذلك ان استطعت .

قال سمير: - هذا حقي .

فأوضح له محمد الأمر قائلا : - هـذا حقك حقـا ولكن لا بد أن يوقع جميعنا بـالموافقـة على البيع لأن الأرض على المشـاع وسيجرنا ذلك لمواجهة بعضنا البعض في المحاكم . . هل تريد أن نصبح فرجة للناس في المحاكم وأضحـوكـة للنـاس في كل مكان .

تساءل سمير في غضب : - ما معنى هذا . . أجيبوني فأنا لا أفهم؟

أجـابـه محمـد قـائلا : - دعني افهمك . . «على المشـاع» تعني مثل مـا يعنيـه أن كل مــواطن في مصر يملك شبرا من أرضها ولكنه لا يملك التصرف فيه الا باجماع الأمة كلهـا على ذلك ، وهذا أمر صعب .

قالت الأم وقد وقف شعر رأسهـا مثل قطـة بـريـة ، وراح وجههـا يتحـول شيئـا فشيئـا ليكتسب شكل وجـه طـاهــر أفندي . . سحنته . . ملامحه . . بل وعيناه :

- هل فهمتم؟ البيع أمـر مستحيل طـالما أنــا على وجــه الأرض . . . فأرضنا عرضنا . . وبيتنا يلمنا . . ولن نبيع ، هل من أحد عنده كلام ثان . . هل من أحد؟

وخيم الصمت على الجميع ، وظل الأبناء يتقاربون يتأملون

بعضهم بعضا . ويتكاتفون على استيحاء ملتفين حول امهم في حب أنساهم خلافاتهم، وضمتهم هي اليهـا في حب أيضا وهم مستسلمون في دعة وخضوع لأحضانها الدافئة التي لم يكونـوا ليستسلمـوا لغيرها على هـذا النحـو، ولم تكن هي لتضم بكل هذا الحب والحنان سواهم.

تمت